

سلوان المطاع في عدوان الأتباع

تأليف

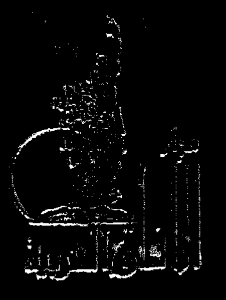
حجة الدين

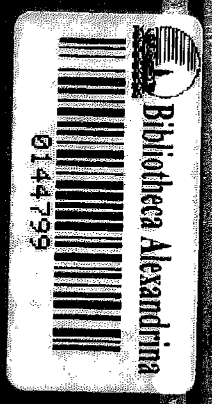
أبو عبد الله بن ظفر الصقلي

« المتوفى ٥٦٨ هـ »

تقديم وتحقيق

أيمن عبد الجابر البحيري











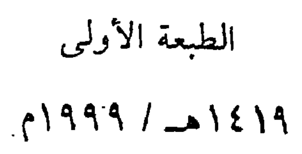
السلوانات

سلوان المطاع في عدوان الأتباع

تأليف
حجة الدين
أبو عبد الله بن ظفر الصقلي
«توفي ٥٦٨ هـ»

تقديم وتحقيق
أيمن عبد الجابر البحيري





الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

رقم الإيداع	١٦٦٥ / ٩٩
الترقيم الدولى I.S.B.N	977-5727-34-0



القاهرة ـ ٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران

مدينة نصر ـ ت : ٢٦١٠١٦٤

السلوانات

سلوان المطاع في عدوان الأتباع

تأليف
حجة الدين
أبو عبد الله بن ظفر الصقلي
«توفي ٥٦٨ هـ»

تقديم وتحقيق
أيمن عبد الجبار البحيري



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا خير الخلق أجمعين.

أما بعد ، فإن التراث الإسلامى هو النتاج الفكرى لحركة وتأمل العقل البشرى المسلم عبر القرون ، من لدن عصر النبوة إلى عصر شيخ الإسلام البيجورى[1] شيخ الجامع الأزهر المتوفى رحمه الله (١٢٧٧ هـ - ١٨٥٦م) .

واختيارنا لعصر شيخ الإسلام البيجورى رحمه الله لأن يكون نقطة الارتكاز للنظر إلى ما قبله جاء بناءً على عدة اعتبارات منها :

- أنه رحمه الله آخر من كتب بمنهج من داخل نسق ومنظومة السلف الصالح (ولا يمكن أن نظلم من جاء بعد البيجورى رحمه الله ، ولكن باعتباره علامة على عصره)

- إن هذه الفترة من الزمن هى اللحظة الفارقة فى تاريخنا : لحظة عصر الخديوى إسماعيل ؛ الذى حاول أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، وبداية رحلة التغريب .

يقول شيخنا الأستاذ الدكتور على جمعة (حفظه الله) :

إن هذا التراث الذى بين أيدينا - فى الحقيقة - لابد لنا أن نفهمه وكثير من الناس يرفضون التراث رفضا تاماً ، وهذا الرفض رفض وجدانى فقط ؛ لأنه لم يفهم التراث أصلاً حتى يرفض ما فيه ، وكثير من الناس يقبلون التراث قبولاً تاماً وهذا أيضاً قبول وجدانى ؛ لأنه لم يفهم ما فيه أيضا ، نعم هو خير من الأول الذى رفض لأنه ينتمى إلى آبائه الصالحين وإلى سلفه الأماجد ، لكن لابد علينا أن نفهم التراث[2] .

ويرى أستاذنا الدكتور على جمعة أن التراث مكتوب بشفرة لابد من حلها لكى نفهم هذا التراث ، وقد طرح عدة أمور يرى فيها الحائل بيننا وبين النص التراثى ، فمنها :

---

(١) انظر : المدخل ، د. على جمعة ص (١٠) .

(٢) انظر المدخل ص (١٥) .

ـ إدراك التصور الكلى الذى كان سائغاً عند الكاتبين للتراث عبر الزمان والمكان ، وهى تصورات كانت قائمة فى أذهانهم وحاكمة على كتاباتهم حتى شاعت هذه التصورات وكأنها مسلمات .

ـ وأيضاً ؛ فقد العلوم الخادمة ، فكل علم من هذه العلوم كان يعتمد على بنية فكرية ؛ هى عبارة عما حصله العالم من درس فى مختلف العلوم الأخرى .

ـ ومنها ؛ قضية الصياغة اللغوية والمنطقية ، والتى تحتم علينا أن ندرك فلسفة اللغة وعلاقتها بما فى الأذهان وبما فى الأعيان ؛ وقضية المصطلحات ، فلكل عصر ولكل مذهب ولك علم مصطلحاته الدقيقة التى إذا ما فقدها القارئ المعاصر أو طالب العلم أو الباحث فإنه لا يدرك كثيراً مما أمامه من كتابات القوم .

إن قضية تراث الأجداد من القضايا التى تطرح على الساحة الآن بقوة ، وسوف تظل فترة من الزمن فى أوراق الباحثين ، وذلك راجع إلى سؤال يدور فى الأعماق : كيف كنا ؟ وكيف أصبحنا ؟! ، هو بحث عن الهوية التى تاهت مفرداتها ، والسؤال البديل هو : كيف نفهم أبعاد قضيتنا فى إطارها الصحيح ، ومناهج تراثنا دون الوقوف على مسائله الملازمة لعصر أجدادنا .

إن أول هذه الأمة قد صح بأمور ومحددات منهجية استمدت من خصائص كتاب الله وتطبيق وتنزيل على الواقع وظروف هذا الواقع وملابساته .

ويتميز النص الذى بين أيدينا بالثراء ، وبالمنهج ودقته وبإمعان النظر يزيد إدراكنا لدقة المنهج الذى عنى ابن ظفر بتحديده والالتزام به منذ البداية .

يحدد المؤلف إسناداته المرجعية فيقول :

١- وصدرتها بآى من التنزيل المحكم .

٢- وأحاديث عن المصطفى ﷺ .

٣- إلى ما تلا ذلك من منثور الحكم وموزونها .

٤- وأبكار الآداب وعيونها .

كذلك يعرف المؤلف كل سلواناته تعريفا وافياً ، ويلتزم به فى اختياره للحكم والقصص التى يستشهد بها على آرائه .

واختيار عنوان الكتاب أصلا اختيار يتفق مع منهاجية المؤلف ، وفهم العنوان سيكون مفتاحاً من المفاتيح الرئيسية للنص .

فالكتاب كتب أساساً بغرض "تسلية" الموجه له ، والموجه له هنا هو

"المطاع" أى الحاكم أو الملك ، فالكتاب يستهدف تسلية الملك وهو ملك معين محدد ، هذا الملك يتعرض لـ "عدوان الأتباع" ويعيش فى محيط الفتن والمؤامرات ، وهو بحاجة لنوع من الرياضة الروحية لتنسيه متاعبه .

هنا يتقدم ابن ظفر بسلواناته مدركاً قيمتها من حيث إنها روضة للقلوب والأسماع ، ورياضة للعقول والطباع .

تحقيق المخطوط :

عندما عثرت على هذا النص وهو كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) لحجة الدين عبد الله بن محمد بن ظفر الصقِلّى ـ رحمه الله ـ فى مكتبة المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالقاهرة .

لفت انتباهى اسم هذا الكتاب ، وهو يعرف أيضا بـ (السلوانات) فعكفت على قراءته باهتمام وأعجبنى أسلوب الكاتب وطريقة تناوله لموضوعه ؛ فعزمت على تحقيقه ، وكان البحث عن مخطوطات له ، وبالفعل وجدت له فى دار الكتب المصرية عدة مخطوطات منها ماهو تام كامل ، قد يكون مخطوطاً أو اثنين ، والباقى ناقص .

وكانت أفضل النسخ على الإطلاق نسخة مكتبة (أوسكريال) بإسبانيا المنقولة عن نسخة دار الكتب المصرية ، فشمرت له عن ساعدى الجد وقمت بإعداد نسخة منضبطة قدر الإمكان ، وفى حالة تعثرى فى قراءة لفظة أو إشكال فى فهم عبارة كنت أرجع إلى باقى المخطوطات لعلى أجد ضالتى ، وذلك كان قليلاً ما يحدث لجودة النص ، ولم نبخل بالوقت أو الجهد حتى كانت الصورة الماثلة أمامكم ، والله الموفق .

وصف المخطوط :

ـ **مصدره** : دار الكتب المصرية . **تصنيف** [أدب رقم ١٤١٤] ميكروفيلم (٣١٨٣٧) عدد الورق : (١٦٦) ورقة من القطع المتوسط ، عدد الأسطر (١٦) سطراً ، نوع الخط نسخ عادى وجميل ، بخط ناسخ ....

عملنا فى هذا الكتاب :

١- ضبط النص وتقويم العبارة ، وتصحيح التحريف والتصحيف ، وإن ندر ذلك

٢- عزو الآيات ، وتخريج الأحاديث .

٣- الفهارس اللازمة للكتاب .

وختاماً ؛ نسأل الله أن نكون قد وفقنا فى هذا العمل ؛ لا يسعنا إلا أن نشكر كل من ساعدنا بالوقت والجهد على إتمامه وإخراجه بهذه الصورة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

القاهرة
عصر يوم الاثنين
الخامس والعشرون من شعبان لسنة (١٤١٩هـ)
الموافق الرابع عشر من ديسمبر ، لسنة (١٩٩٨م)
أبو محمـــد
أيمـــن البحيـــــرى

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

اسمه ولقبه : هو عبد الله بن محمد بن الظفر الصقلى ، المنعوت بحجة الدين، وهو أحد المنتمين لحقل العلم والأدب فى التراث العربى الإسلامى .

ميلاده ونشأته وطلبه للعلم : ولد بصقلية عام (٤٩٧ هـ) ، وكان رحالة يهوى السفر وطلب العلم ، انتقل من مكة التى نشأ بها إلى مصر فى صباه ، ثم إلى المهدية بشمال إفريقيا ، ثم إلى حلب ماراً بمصر مرة أخرى ، ثم توجه إلى حماة واستقر فيها ، وعمل بالديوان، وكان راتبه دون الكفاف ، ولم يزل يكابد الفقر إلى أن توفاه الله .

مكانته : كان عالماً أديباً شاعراً ، متعمقاً فى علوم الدين واللغة والنحو ، وقد أطلق عليه لقب (حجة الدين) لتصانيفه العميقة فى العلوم الدينية .

تصانيفه : فى العلوم الدينية له "التشجين فى أصول الدين" و (أساليب الغاية فى أحكام آية) و (ينبوع الحياة) وهو تفسير للقرآن الكريم .

وفى الأدب والشعر له أشعار رقيقة فى الحب ، وله أيضاً (شرح مقامات الحريرى) .

كذلك كان أديباً بارعاً فى القص والحكى ، يجمع بين قصص التاريخ الحقيقية، وقصصه التى يبدعها هو نفسه .و له "أنباء نجباء الأبناء" الذى يورد فيه أنباء عشرة من الصحابة ، وبعض أبناء ملوك العرب فى الجاهلية ، إضافة إلى أنباء ملوك الفرس .

وفاته : توفى رحمه الله عام (٥٧٠ هـ) .

مصادر ترجمته : ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ٤ ، ص (٣٩٥) .

ـ كشف الظنون (١٢٦) .

ـ إيضاح المكنون (١ / ٦٨ ، ٢ / ٢٤٤) .

ـ الأعلام للزركلى (٦ / ٢٣٠ ، ٢٣١) .

ـ سير أعلام النبلاء (٥١٥٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي
قال الفقير إلى الله الغني أبو محمد
ابن أبي محمد بن خلف المكي غفر الله عنه
أن أشكر الله سبحانه بأسنى الملابس
الفاخرة وأن أحمده لا عوذ بخير الدنيا وخير
الآخرة فنحمد لله جاعل الصبر للنجاح ضمينا
والمحبوب في المكروه كمينا الذي ضرب
دون أسرار الأقدار حجابا مستورا وقضى
أن

صورة الغلاف من مخطوط دار الكتب المصرية

ان الخَيْرَ علي القَطْنِ حجرًا محجورًا • واوطى
المستسلمين لمشاياه بساطا ممهودًا وثيرًا •
وأمطأ المتمرسين بقضاياه حصانًا
كنودًا عثورًا فقال سبحانه فعسى ان
تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا •
وصلى الله على المرسل شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا •
وداعيًا الى الله باذنه وسراجًا منيرًا •
سيدنا محمد المصطفى وسلم تسليما كثيرا
وبعد فان مما أفضى
اليه اضراب الاعراب وانتاب الاكثاب
ان اظفرني الله سبحانه وله المنة والحمد
بمواخات مقيل عثرات السادة السراة
وسبل الانفس ذوي الاحن الحاسدين حسرًا

الوثير: اللين من الفراش
الكنود: المانع
العثور: ...
الاكثاب: الجسام
الاحن: جمع الحقد

الصفحة الأولى من المخطوط

ه من الامثال ثم نهض مضطرب البيت

وخرج بابل من فوزه نشاح وتم بغيه ن

طاح انتهى قال ابو عبد الله تغمده بغفر

انه النبي بن محمد بن ابي محمد بن ظفر مكي

عفا الله عنه والحمد لله قد انتهيت بغية

ما اردت الى نهية ما اوردت وانا

اعوذ بالله من عذاب الاعذاب كما اعوذ به

من عجاب الاعجاب واستكفيه غول سلوك

كما استعفيه من غول الجواب واستدفع به

فساد الخطاب كما استدفع بركتنا دا الصواب

وانوب اليه فهو الرحيم التواب

تم كتاب سلوان المطاع وعدوان

الاتباع بحمد الله وعونه

١٦٦

الصفحة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة آية ٣٢



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

مقدمة

قال عبد الله الفقير إليه الغنى به محمد بن أبى محمد بن ظفر عفا الله عنه:

إنَّ شكر الله سبحانه لأسنى الملابس الفاخرة ، وإن حمده لأعودُ بخير الدنيا وخير الآخرة .

فالحمد لله جاعل الصبر للنجاح ضمينا ، والمحبوب فى تجرؤه كمينا ، الذى ضرب دون أسرار الأقدار حجابا مستورا ، وقضى أن الخير على الفَطِن لايزال حجرا محجورا ، وأوطى المستسلمين لمشاياه ممهودا وثيرا[(١)] ، وأمطـى[(٢)] المتبرمين بقضاياه كبودا[(٣)] عثورا[(٤)] ، وقال سبحانه ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ الله فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء : ١٩] .

وصلى الله على المرسل شاهداً ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، سيدنا النبى المصطفى محمد وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن مما أفضى إليه اضطراب الاغتراب ، وانتياب الاكتئاب[(٥)] ، أن أظفرنى الله وله الحمد ، بمؤاخاة مقيل عثرات السادات السراة ، ومسل أنفس الحسدة حسرات ، سيد السادة ، وقائد القادة ، أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم على بن علوى القرشى ؛ بارك الله له فى الخير الذى ألهمه كسبه وكان وليه وحسبه . فلقد أنزل الدنيا بدرك منزلتها ، وكوشف بشرك مذلتها ، فَعَمِلَ للبقاء لا للفناء ، وجمع للجود لا للاقتناء ، وجاد لله لا للثناء ، وآخى للتعاون على البر والتقوى ، لا للتهافت فى هوى الهوى ، وزان الرياسة بنفس لاتضيق بنازلة

---

(١) خضوعاً وليناً .

(٢) أى أحكم عليهم .

(٣) أى ضيق عليهم .

(٤) أى أتعثهم وأهلكهم .

(٥) الحزن الشديد .

ذرعا ، ولا تصغى إلى الوشاة سمعا ، ولا تدنس بطبع طبعا ، وبحلم لايرفع الغضب لديه رأسا ، وحزم لا تخاف الإنابة معه بأسا ، فالحمد لله الذى أباحنى من إخائه حِمَى منيعا ، وحرما آمنا ، ومرتعا مريعا ، ووِرْدا منيعا ووَرْدا ينيعا

فَنَحْنُ بِقُرْبِهِ فِيمَا اشْتَهَيْنَا وَأَحْبَبْنَا وَمَا اخْتَرْنَا وَشِيْنَا
يَقِيْنَا مَا نَخَافُ وإنْ ظَنَنَّا بِهِ خَيْراً أَرَانَاهُ يَقِيْنَا
نَمِيْلُ عَلى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيْلُ إِذَا نَمِيْلُ عَلى أَبِيْنَا

وأُقسمُ لولا أن الشكر عقد شرعى ، وحق مرعى ، لقررت عينه بطى مانشرت والتورية عما إليه أشرت ، إذ كان ـ وقانى الله بُعده ، ولا أبقانى بَعده ـ يرى أن الشكر فى وجوه آلائه ندوب(1) ، والمدح من خواص أوليائه ذنوب ، فلا زالت يد التوفيق له ناصره ، وخطى الشوائب عنه قاصرة ، ومكانة العلاء به فاخرة، ومكادة الأعداء له داحرة ، آمين آمين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه الأكرمين ، وسلم عليه وعليهم فى العالمين ، ولما كانت الهدايا تزرع الحب وتضاعفه ، وتعضد الشكر وتساعفه(2)، أحببت أن أهدى له هدية فائقة ، تكون عنده نافقة(3) وبقدره لائقة ، فلم أجد ذلك إلا العلم الذى شغفه حبا ، والحكمة التى لم يزل بها صبا(4) ، والأدب الذى استوعبه مولوداً وكسباً ، واستغمره جلباباً وقلباً ، فأتحفته "بأساليب الغاية فى إحكام آية" . وهو كتاب ضمنته أحد عشر أسلوبا تُفضى بسالكها إلى العلم بالظاهر ، والمستنبط من قول الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة : ٦] .

ثم شفعته "بالمسنى لاستشفاف المعونةِ والاشراف" ، وهو كتاب استوعبت

---

(١) أى تقصير .

(٢) تعاونه وتساعده .

(٣) نافعة ومجدية .

(٤) مولعاً .

فيه مسائل ذينك التأليفين الشريفين مشفوعة بنخب براهينها ، ثم عززتها "بدرر الغرر" ، وهو كتاب انتظمت فيه درر "أنباء نجباء الأبناء" فأودعته منها ما عز مطلبه ، وبهرت حكمته ، وحسن أدبه ، ثم رتبت بكتابى هذا ، وهو كتاب عمدت فيه إلى أمثلة؛ استأثر خواص الملوك ببضاعتها ، ومنعتهم الغيرة عليه من إذاعتها ، فتوسعت بالتعبير بألفاظى عنها ، والتحبير بعلمى لها ، والتفنن بقوى فطنتى فيها، توسعا لا يحظره شرع ، ولا ينبو عنه سمع ، حتى إذا عادت أهلتها بدورا رائعة، وآضت وديها[1] غناء يانعة ، نفثت فى صورها أرواح الأخلاق الزكية وكسوت جسومها حلل الآداب الملوكية ، وتوجت رؤوسها تيجان الهمم الأبية ، وقلدت عواتقها سيوف المكايد الحربية ، وصدرتها بآيٍ من التنزيل المحكم ، وأحاديث عن المصطفى ﷺ ، إلى ما تلا ذلك من منثور الحكم وموزونها وأبكار الآداب وعونها ، فبرزَت روضة للقلوب والأسماع ورياضة للعقول والطباع ، وسميتها **(سلوان المطاع فى عدوان الأتباع)** ، والسلوان جمع سلوانة ، وهى خرزة تزعم العرب أن الماء المصبوب عليها إذا شربه المحب سلا[2] .

قال الراجز :

لَوْ أُشْـرِبَ السُّـلْوَانُ مَـا سَلَيْتُ   مَـا بِى غِنًى عَنْكُـمْ وَإِنْ غَنَيْتُ

وهن خمس سلوانات

السلوانة الأولى : فى التفويض
والسلوانة الثانية : فى التأسى
والسلوانة الثالثة : فى الصبر
والسلوانة الرابعة : فى الرضا
والسلوانة الخامسة : فى الزهد

وأنا أرغب إلى الله سبحانه فى الإمداد بالسداد والإرشاد إلى نفع العباد ، فبه الحول والمكنة ، وله الطول[3] والمنة .

---

(١) أى عادت وديها ذات أزهار ووردها جميلة .
(٢) نسى .
(٣) الفضل والزيادة والسعة .

السلوانة الأولى



سلوانة التفويض

قال الله ربنا تقدس اسمه ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء : ١٩] .

وقال تقدس اسمه ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

فاستوقَفَ من عَقَلَ أمرَهُ عن الاقتراحِ(١) عليه وأفهمهم ما يرضاه من التفويض إليه ، فالعاقل تارك الاقتراح على العالِم بالصلاح ، ووجه إفهام الندب إلى التفويض من هاتين الآيتين : أنه إذا كان المكروه قد يأتى بالمحبوب والمحبوب قد يأتى بالمكروه ، فالأولى بذى البصيرة ألا يأمن المضرة بالمسرة ، ولا ييأس من المسرة بالمضرة ، فيستخير الله سبحانه ولايختار عليه ، وهذا هو التفويض المستمِدُّ من الله سبحانه ، صرفَ البلاءِ ، واللطف فى مكروهِ القضاءِ

وبهذا عاملَ الله سبحانه مؤمن آل فرعون حين فوض أمره إليه . وذلك ما بلغناه : أنه كان من ذوى قرابة فرعون وخواص أصحابه ، وكان وزراء فرعون قد فطنوا لإيمانه واتباعه موسى عليه السلام ، فأطلعوا فرعون على ذلك فلم يصدقهم وعطفته على ذلك المؤمن القرابة ، ولما ظهرت آيات الله سبحانه على يدى موسى عليه السلام بحضرة فرعون ، جمع فرعون بطانته ووزراءه وفيهم ذلك المؤمن ، فشاورهم فى أمر موسى عليه السلام فاتفقوا على أن الرأى مطاولة موسى عليه السلام وجمع السحرة لمقاومته ، وكان رأى فرعون معالجة موسى بالقتل ، وبذلك أخبر ربنا تقدس اسمه فقال ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى المَدَائِنِ حَاشِرِيْنَ ، يأتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف :١١١] . وقال عزَّ من قائل ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى﴾ [غافر : ٢٦] .

ولما اطلع وزراء فرعون على رأيه فى موسى عليه السلام ؛ أمسكوا عن مراجعته هيبة له ، وأشفق ذلك المؤمن أن يبطش فرعون بموسى عليه السلام ،

---

(١) الاستنباط من ذات نفسه من غير سماع .

فعيل صبره[1] وضاق بسره صدره فقال ما أخبر الله به عنه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر : ٢٨] ، ثم كأنه استقال وراجع التقية[2] والحذر والتورية فقال ما أخبر الله عنه ﴿وإن يَكُ كاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُه وإنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر : ٢٨] .

فلما سمع فرعون مقالته غضب وأمر به فسجن ، ثم شاور بطانته ووزراءه فى أمره ، فأشاروا بأن يسلط العذاب عليه ثم يقتله ليرتدع به من كان على مثل رأيه، فكره ذلك فرعون وعطفته عليه القرابة ، وأمر وزراءه أن يسيروا إلى ذلك المؤمن فيعظوه وينصحوه ، ويأمروه بمراجعة ما كان عليه من الطاعة ، ويخوفوه عاقبة خلافه ، ففعلوا ذلك .

فلما سمع المؤمن مقالتهم دعاهم إلى الله تعالى ، وأذكرهم ما عاينوه من الآيات، وحذرهم زوال نعمة الله عنهم ، وحلول مكره بهم وكان منه إليهم ما أخبر الله عز وجل به عنه من قوله ﴿ويَا قَوْمِ إنى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ [غافر : ٣٠] ، وقوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر : ٣٤] . وقوله ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ﴾ إلى قوله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤] .

فعاد القوم إلى فرعون وأخبروه عن المؤمن بثبوته على المشاققة[3] والمنابذة[4] والمعصية لفرعون ، وأن النصح لم يزده إلا تماديا على أمره ، فساء ذلك فرعون وشق عليه ، وخلا بنفسه مفكرا فيه ، فأتته ابنته فسألته عن أمره فأطلعها عليه فقالت له : إن عندى الفرج مما أنت فيه ، فلا تتعجل على خاصتك وذوى قرابتك فإنه على ما تحب ، ولكنه لما رأى أن موسى عليه السلام قد امتنع بالسلطان الذى فى عصاه ، وأنَّ قتله مجاهرة غير ممكن ،

---

(١) أى نفذ صبره .

(٢) أن يقول غير ما يضمره .

(٣) المخالفة .

(٤) المفارقة عن عداوة .

تظاهر بما أنكرته عليه ؛ لينخدع بذلك موسى ويتمكن من مداخلته وقتله غيلة[(١)] ، فكلما رأيت وسمعت إنما هو مكر بموسى ، وما منعه أن يطلع عليه وزراءك حين ذهبوا إليه، إلا أنهم أهل نميمة وحسد وبغى ، لم ينطبعوا على مثل رأيه ونصحه .

فسر فرعون بمقالتها وألقى الله فى نفسه تصديقها ، فيقال : إن آسية امرأة فرعون هى التى أمرتها بذلك ، فأحضر فرعون ذلك المؤمن ، واعتذر إليه وأكرمه، وقال له : قد علمت ما أنت قاصد له وساع فيه ، فقل ما بدا لك أن تقوله ، وافعل ما شئت أن تفعله فلست أتهمك . قال الله سبحانه ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر :٤٥] .

فهذه الوقاية هى ثمرة ذلك التفويض ، ثم قال ربنا تقدس اسمه ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر :٤٥] ، أى حاق بهم ما أرادوه بذلك المؤمن من التعذيب ، وإن كان عذاب الدنيا لا يجتمع مع عذاب الآخرة إلا فى التسمية ، وهذا كقوله سبحانه ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر : ٤٣] .

واعلم رحمك الله وإياى أن حقيقة التفويض هو التسليم لأحكام الله ، وهو الذى دل الله عليه مصطفاه محمدا ﷺ بقوله ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٥١] ، وأس[(٢)] التفويض والباعث عليه ، إنما هو : اعتقاد أنه لا يكون من الخير والشر إلا ما أراد الله تعالى كونه . ولا يصح التفويض ممن لم يعتقد ذلك ويتدين به ، وقد بالغ النبى ﷺ فى قوله لعبد الله بن مسعود[(٣)]: **«ليقل همك ما قدر يأتيك وما لم يقدر لم يأتك ، واعلم أن الخلق لو جهدوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا على ذلك ، ولو جهدوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عز وجل لك**

(١) قتله بالخديعة ، أى اغتياله .

(٢) أصل وأساس .

(٣) عبد الله بن مسعود ؛ ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن الحارث ، أبو عبد الرحمن الهذلى المكى المهاجرى البدرى ، الإمام الحبرُ ، فقيه الأمة كان من السابقين النجباء والعاملين ، شهد بدراً ، وهاجر الهجرتين ، ومناقبه غزيرة ، روى علماً كثيراً ، قال فيه النبى ﷺ «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد» . مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة (٣٢هـ) وله ٦٣ سنة . سير أعلام النبلاء (٩٣) .

لم يقدروا على ذلك»[1]. فقوله صلى الله عليه وسلم : «ليقل همك». أمر بالتفويض ، وقوله «وما قدر يأتيك». إلى آخر الكلام : بيان للعلة التى من أجلها فوَّض العقلاء، وسلموا إلى الله عز وجل .

ونحو ذلك ما رويناه فى مسند مسلم ؛ أن النبى ﷺ قال لأبى هريرة ، فى كلام قاله له : «وإن أصابك شئ فلا تقل لو فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[2]. فدله على التفويض إلى الله والتسليم لأمره ونهاه عن قول (لو) لأنها تنافى التفويض إلى الله ، وتقتضى الاعتراض على قدره ، والتعاطى لدفع مشيئته .

ومما رويناه من صحيح مسلم عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوْءَكَ لِلصَّلاة ، ثم اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ ثُم قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْلَمْتُ وَجْهِى إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْك ، لا مَلْجَأَ ولاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِى أَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِى أَرْسَلْتَ»[3].

أسجاع وأبيات حكمية فى التفويض

مُعارضةُ العليلِ طبيبَه ؛ تُوجبُ تعذيبَهُ .

إنما الكيِّسُ[4] الماهرُ ؛ من استسلم فى قبض القاهر .

إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة ؛ فمن أعوان نفوذ الحيلة .

إذا التبست المصادر ؛ ففوض الأمر إلى القادر .

إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ، ومدبر مربوب[5] ؛ أن يتبلد رأيه فى بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب ، فإذا كان ذلك ، فإن تدميره فى تدبيره ، واغتياله فى احتياله ، وهلكته فى حركته .

---

(١) أخرجه الترمذى :كتاب صفة القيامة ، باب (٥٩) (٢٥١٦) بنحوه من طريق ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام مسلم : كتاب القدر ، باب الإيمان للقدر والاذعان له (٣٦) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وابن ماجة : كتاب المقدمة ، باب (١٠) (٧٩) ، والإمام أحمد فى مسنده (٣٦٦/٢ ، ٣٧٠) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم : كتاب الدعاء ، باب الدعاء عند النوم (٥٤) (٥٥) من طريق البراء ابن عازب رضي الله عنه .

(٤) الفطن والحسن الفهم .

(٥) أى فطر على العبادة .

قيل : كان الحجاج بن يوسف[1] إذا تعارضت آراؤه فى خطب من الخطوب أنشد :

دَعْهَا سَمَاوِيَّة تَجْرِى عَلَى قَدَرٍ ... لا تُفْسِدَنْهَا بِرَأْيٍ مِنْكَ مَنْكُوسِ[2]

وفى ذلك قلت :

أَيَا مَنْ يُعَوِّلُ فى المشكلاتِ ... عَلَى مَا رَآه ومَا دَبَّرَهْ
إِذَا أَشْكَلَ الأَمْرُ فابْرأْ بِهِ ... إِلَى مَنْ يَرَى مِنْهُ مَا لَم تَرَهْ
تَكُن بَيْنَ عَطْفٍ يَقِيْنَكَ المخُوفَ ... ولُطْفٍ يُهَوِّنُ مَا قَدَّرَهْ
إِذَا كُنْتَ تَجْهَلُ عُقْبَى الأُمُورِ ... وَمَا لَكَ حَوْلٌ وَلاَ مَقْدِرةْ
فَلِمَ ذَا العِنَا وَعَلاَمَ الأَسَى ... ومِمَّ الحَذَارِ وفِيْمَ الشَّرهْ؟

وقلت فى ذلك أيضا :

يَا رُبَّ مُغْتَبِطٍ ومَغْبُوطٍ بِرَأْيٍ فِيْهِ هُلْكُهْ[3]
وَمُنَافِسٍ فِى مُلْكِ مَا يُشْقِيْهِ فى الدَّارَيْنِ مُلْكُهْ
عِلْمُ العواقِبِ دُونَهُ سِتْرٌ ولَيْس يُرامُ هَتْكُهْ[4]
فَكُنِ امْرَأً مَحْضَ اليَقِيْنِ وَزَيِّفَ الشُّبُهَاتِ نُسْكُهْ
ومُعَارِضُ الأَقْدَارِ بالـ آرَاءِ سَيِّئُ الحَالِ ضَنْكُهْ
تَفْوِيضُهُ تَوْحِيدُهُ وعِنَادُ المقدُورِ شِرْكُهْ

روضة رائقة ورياضة فائقة

لما بلغ الوليد بن يزيد بن عبد الملك[5] أن ابن عمه يزيد بن الوليد بن

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى ؛ قائد وخطيب عربى ، ولد فى الطائف ، وولاه الخليفة عبد الملك بن مروان إمرة الجيش ، كان ذا شجاعة وإقدام ومكر ، ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن ، وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه ، وأمره إلى الله ، وله توحيد فى الجملة ، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء ، أهلكه الله فى رمضان سنة (٩٥هـ) كهلاً، وكان ظلوماً ؛ جباراً ، سفاكاً للدماء . سير أعلام النبلاء (٤٩٨) .
(٢) منكوس : أى خائب مردود .
(٣) الغبطة : تمنى نعمة على أن لا تحول عن صاحبها .
(٤) يرام : أى يراد .
(٥) الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ هو الخليفة الأموى الحادى عشر ، خلف عمه هشام بن

عبد الملك[1] قد أوغر عليه الصدور ، وشرد عنه القلوب ، واستجاش اليمن عليه، ونازعه رداء ملكه ساعيا فى هلكه ، استوحش من بطانته ، واحتجب عن سماره ، فدعا عشية من عشايا وَحْشَتِهِ خادما له فقال : انطلق متنكرا فقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس ، فإذا رأيت كهلا رث الهيئة والملبس يمشى مشيا هونا وهو مطرق فسلم عليه وقل له فى أُذنه : إن أمير المؤمنين يدعوك ، فإن أسرع الإجابة فائتنى به ، وإن تلكأ أو عارض أو استراب فدعه ، واطلب غيره حتى تأتينى برجل على الشرط .

فلما دخل الكهل على الوليد بن يزيد حياه بتحية الخلافة وقام ، فأمره الوليد بالدنو والجلوس ، وأمهله إلى أن ذهبت روعته وسكن جأشه ، ثم أقبل عليه فقال: أتحسن مسامرة الخلفاء ؟ فقال الكهل: نعم أحسنها يا أمير المؤمنين فقال له الوليد: إن كنت تحسن مسامرة الخلفاء فأخبرنا عنها ما هى ؟ .

فقال الكهل : المسامرة إخبار لمنصت وإنصات لمخبر ، ومفاوضة فيما يعجب ويليق ، فقال له الوليد: أحسنت أيها الرجل ، لأزيدك امتحانا ، فقل ننصت لقولك.

فقال الكهل : يا أمير المؤمنين : إن المسامرة صنفان لا ثالث لهما : أحدهما: إخبار بما يوافق خبرا مسموعا ، والثانى : إخبار بما يوافق غرضا مقترحا ، وإنى لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين حديثا ، فأحذو على مثاله ولا أقترح على أمير المؤمنين سلوك طريقة فأنحو نحوها وألزم أسلوبها .

فقال الوليد : صدقت ، وها نحن نقترح عليك ونرسم لك رسما لتقتفيه : إنَّا بَلَغَنَا أَنَّ رَجُلاً مِنْ رَعِيتِنَا سَعى فِيمَا يَضمُّ مُلْكُنَا ، فَأزْمَنَ سَعْيه[2] ، وَشَقَّ ذَلِكَ

عبد الملك ، عاش فى قصره فى البادية منصرفاً إلى الشعر والموسيقى حتى قتل عام (١٢٦هـ) وقد تولى الخلافة عام (١٢٥هـ) سير أعلام النبلاء (٧٩٤) .

(١) يزيد بن الوليد ؛ الخليفة أبو خالد القرشى الأموى الدمشقى ، استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز ، وأمه هى عاتكة بنت يزيد بن معاوية . ولد سنة (٧١هـ) وكان لا يصلح للإمامة ، مصروف الهمة إلى اللهو والغوانى . مات سنة (١٠٥هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٧٩).

(٢) أى طال سعيه .

عَلَيْنَا وَبَلَغَ مِنَّا ، فَهَلْ نمى ذلك إلى علمك ؟ .

فَقَالَ الكَهْلُ : نَعَمْ ، قَالَ الوَلِيْدُ : قُلْ الآنَ عَلَى حَسْبِ مَا نَمى إِلَيْكَ مِنْهُ وَعَلَى حَسْب مَا تَرْضَى مِنَ التَدْبِيرِ فِيْهِ .

فَقَالَ الكَهْلُ : يَا أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْن : إِنَّهُ بَلَغَنِى أَنَّ أَمِيرَ المؤْمِنِين عَبْدَ المَلِكِ بن مروان[1] ، لما نَدَبَ النَاسَ لِقِتَالِ عَبْد الله بن الزبير[2] ، وخرج بهم متوجهًا إلى مكة ـ حرسها الله ـ استصحب عمرو بن سعيد بن العاص[3] ، وكان عمرو بن سعيد قد انتوى على دغل نية[4] ، وفساد طوية ، وطماعية فى نيل الخلافة ، وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك إلا أنه كان يبقى عليه لتأكد حرمته ، وأواصر رحمه . فلما فصل أمير المؤمنين عن دمشق وسار عنها أياما، واستمر به السير تمارض عمرو بن سعيد ، فاستأذن أمير المؤمنين عبد الملك فى العود إلى دمشق[5] فأذن له ، فلما دخل عمرو بن سعيد

---

(١) عبد الملك بن مروان ؛ ابن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، الخليفة الفقيه ، أبو الوليد الأموى ، ولد سنة (٢٦هـ) . تملك بعد أبيه الشام ومصر ، ثم حارب ابن الزبير الخليفة ، كان قبل عابداً ناسكاً بالمدينة . أول من ضرب الدنانير وكتب عليها القرآن . وكان من رجال الدهر ودهاة الرجال ، وكان الحجاج من ذنوبه . مات سنة (٨٦هـ) وله (٦٠سنة) سير أعلام النبلاء (٤٧٠) .

(٢) عبد الله بن الزبير ؛ ابن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أمير المؤمنين ، أبو بكر وأبو خبيب ، القرشى الأسدى المكى ثم المدنى ، أحد الأعلام . كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة . بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة (٦٤هـ) وحكم على الحجاز ، واليمن ، مصر ، والعراق وخراسان ، وبعض الشام . ومناقبه وفضائله رضي الله عنه تطول فى هذا المكان . مات سنة (٧٣هـ) . سير أعلام النبلاء (٢٨٧) .

(٣) عمرو بن سعيد بن العاص ؛ ابن أمية بن عبد شمس ، أبو أمية القرشى الأموى ، المعروف بالأشدق ، يقال إنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه . استنابه معاوية على المدينة، وكذلك يزيد بن معاوية بعد أبيه . وكان من سادات المسلمين ، ومن الكرماء المشهورين، يعطى الكثير ، ويتحمل العظائم ، ومات سنة (٧٠هـ) البداية والنهاية (٨/٣١٤) .

(٤) أى أضمر الغدر والخديعة .

(٥) دمشق : مدينة سورية ، وهى عاصمتها حالياً ، تقع على نهر بردى . معجم البلدان

دمشق ، صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة ، ودعا الناس إلى خلعه فأجابوه إلى ذلك وبايعوه ، فاستولى على دمشق وحصن سورها ، وحمى عورتها، وسد ثغورها وبذل الرغائب(١) ، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان وهو متوجه إلى ابن الزبير ، وبلغه مع ذلك أن والى حمص قد نزع يده من الطاعة ، وأن أهل الثغور قد تشوفوا للخلاف ، فخرج على وزرائه وبيده مخصرة(٢) يضرب بها عطفه(٣)، فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم : هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد ، وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان، وهذا النعمان بن بشير(٤) أمير حمص(٥) ، وزفر بن الحارث(٦) أمير قنسرين(٧) ، وناتل بن قيس(٨) أمير فلسطين(٩) ، قد نزعوا أيديهم من الطاعة وبايعوا الناس لابن الزبير ، وقد تشوف أهل الثغور

(٤٨٦٦) .

(١) الرغائب : مفردها رغيبة وهى العطاء الكثير .

(٢) عصا يتوكأ عليها .

(٣) جانبه .

(٤) النعمان بن بشير ؛ ابن سعد بن ثعلبة ، الأمير العالم ، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه . أبو عبد الله . أبو محمد الأنصارى الخزرجى . وكان من أمراء معاوية ؛ فولاه الكوفة مدة ، ثم ولى قضاء دمشق بعد فضالة ، ثم ولى إمرة حمص .. قيل : إنه قتل بقرية بيرين فى آخر سنة (٦٤هـ) رضي الله عنه . سير أعلام النبلاء (٣٠٠) .

(٥) حمص : مدينة سورية على نهر العاصى بين دمشق وحماة . معجم البلدان (٣٩١٤) .

(٦) زفر بن الحارث : أمير قنسرين فى عهد عبد الملك بن مروان .

(٧) قنسرين : كورة بالشام منها حلب ، وهى مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم . معجم البلدان (٩٩٢٠) .

(٨) ناتل بن قيس : هو أمير فلسطين فى عهد عبد الملك بن مروان وبايع له مروان بن الحكم بفلسطين . البداية والنهاية (٢٤٣/٨) .

(٩) فلسطين : هى آخر كور الشام من ناحية مصر ، قصبتها البيت المقدس ، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين . وقيل : إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب . معجم البلدان (٩٢٤٣) .

للخلاف وهذه المضرية[1] سيوفها على عواتقها تطالبنا بقتلى المرج .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم وعلموا أن لا مقر ولا مفر ، فنكسوا رؤوسهم ولم ينطقوا ، فقال لهم عبد الملك : ما لكم لا تنطقون أحضروني غناءكم فهذا وقت الحاجة إليكم ، فقال له أفضلهم : وأى غنى عندنا فى هذا ؟ وددت والله أنى كنت حرباء على عود من أعواد تهامة[2] حتى تنقضى هذه الفتن .

قال محمد ـ عفا الله عنه ـ : الحرباء : دابة صغيرة طولها أقل من شبر ، لها قوائم أربع ورأس يشبه رأس العجل ، إذا طلعت عليها الشمس ، قامت على عود، أو جرثومة ، أو حجر ، استقبلت الشمس بعينها ، وجعلت تراعيها ولا تصرف عنها بصرها ؛ حتى تستوى الشمس فى أعلى فلكها ، فتصير على رأس الحرباء ، فلا يمكنها النظر إلى الشمس ، فتقلق وتتململ وتضرب بلسانها حنكها، كما يفعل من يسوق حمارا ، فلا تزال كذلك حتى تزول الشمس ، فتستدير الحرباء فتقابلها ببصرها وتراعيها كذلك ، حتى تغيب الشمس فى مغربها ، فإذا غربت ذهبت الحرباء تبتغى ما تأكله ليلتها ، حتى إذا طلعت الشمس عادت لفعلها. فتمنى هذا الرجل أن يكون حرباء فرارا من تلك الفتن .

قال الكهل : فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه ؛ علم أن لا غناء عند وزرائه، فقام عنهم وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب من فوره منفردا ، وأمر جماعة كثيفة من شجعان أصحابه وفرسانهم أن يركبوا فى السلاح ويتبعوه مبتعدين منه، بحيث يرون إشارته إن أشار إليهم ففعلوا ، وسار عبد الملك واتبعه القوم على ما رسم لهم ، فلم يزل سائرا حتى انتهى إلى شيخ كبير السن ضعيف الجسم سيء الحال وهو يجمع السماق[3] فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديث خفيف . ثم قال له : أيها الشيخ : ألك علم بمنزل هذا العسكر ؟ :

---

(١) المضرية : نسبة إلى قبيلة مضر . وسمى مُضَر بذلك لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر .

(٢) تهامة : بلاد جنوبى الحجاز والنسبة إليها تهامى . البداية والنهاية (٢/١٦٠) .

(٣) نوع من الأشجار .

فقال الشيخ : بلغنى أنه نزل بموضع كذا .

فقال له عبد الملك : هل سمعت شيئًا مما يقول الناس فى أمره ؟ .

فقال الشيخ : ما سؤالك عنه ؟ قال عبد الملك : إنى أريد اللحاق به والدخول فى عسكره والتعرض للحظوة عنده .

فقال الشيخ : إنى أراك أديبا وضيا ، وأحسبك حسيبا سريا ، فهل تحب أن أنصح لك فيما أنت قاصد ؟ ، فقال عبد الملك : ما أحوجنى إلى ما تقول .

فقال الشيخ : إنه ينبغى لك أن تصرف نفسك عن هذا الذى نزعت إليه ، فإن الأمير الذى أنت قاصده قد انحلت عرى ملكه ، ونابذه أتباعه ، واضطربت أموره ، وإن السلطان فى حال اضطراب أموره كالبحر فى حال هياجه ، لا ينبغى أن يقرب .

فقال عبد الملك : أيها الشيخ إن الحكمة لم تبلغ بى مغالبة نفسى فى كل ما نزعت إليه ، وإنى أجدها تنزع إلى صحبة هذا الأمير نزاعا شديدا ، ولابد لى من ذلك ، فهل لك أن تحسن إلي فتخبرنى بما تراه من الرأى لهذا الأمير فى تدبيره هذه الخطوب التى دهمته ؛ لأعرض ذلك الرأى عليه والنفق به عنده فلعله أن يكون سببا لقربى منه .

فقال الشيخ : إن حكمة الله وعزته ؛ ليقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل ، وإنى لأظن أن هذه النازلة التى نزلت بهذا الخليفة من النوازل التى لا تنفذ فيها العقول ولا يهتدى إلى صواب تدبيرها الرأى ، وإنى لأكره أن أرد مسألتك بالخيبة ، فها أنا أقول فيما سألتنى عنه قولا أقضى به حق رغبتك ، وإن كنت لا أثق بنفسى فيه لأن الخطب عظيم جدا ، والخطر فيه يضاهى عظمه .

فقال له عبد الملك : قل جزاك الله خيرا ، فإنى لأرجو أن يسددك الله ، ويرشدك ويرشدنى بك إلى الفلاح .

فقال الشيخ : إن هذا الخليفة خرج لمحاربة عدوه فظهر من مشيئة الله سبحانه أنه لا يريد ما قصد له ، والدليل على أن الله لم يرد قصده لمحاربة ابن الزبير ، أنه قطعه عن التمادى بما أحدثه فى دار ملكه ، من وثوب عمرو بن

سعيد على منبره، واستفساده لرعيته ، واستيلائه على بيوت أمواله ، وسرير خلافته ، وإنى مشير عليك بتفقد حال هذا الأمير وانتظار ما يكون منه ، فإن رأيته قد تمادى فيما خرج إليه ، وأصر على قصد ابن الزبير ؛ فاعلم أنه مخذول فاجتنبه ، وإنما كان مخذولا لأن الله سبحانه قد أظهر من حكمه أمرا يقطعه عن التمادى لما خرج له فأبى إلا لجاجا[١] ، وإن رأيته قد رجع من حيث جاء وترك ما كان خرج له وقصد إليه، فأرجو له السلامة لأنه مستقيل[٢] مراجع ، والله سبحانه أهل أن يقيل مَنْ استقاله ويرحم من رجع إليه .

فقال له عبد الملك : يا شيخ : وهل رجوعه إلى دمشق إلا كمسيرى إلى ابن الزبير ، إذ كان قد ظهر من حكم الله ومشيئته أن قبض قلوب رعيته الذين بدمشق عن موالاته ، وبسط أيديهم بالبيعة لغيره ؛ فمسيره إلى ابن الزبير كرجوعه إلى عمرو بن سعيد ؛ لأن كل واحد منهما حاصل على مملكة منيعة ، ورعية مطيعة .

فقال الشيخ : إن الذى أشكل عليك لواضح بيِّن ، وها أنا أزيل اللبس عنك ، إن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان فى صورة ظالم له ؛ لأن ابن الزبير لم يعطه طاعة قط ، ولا وثب له على مملكة ، وهو إذا قصد عمرو بن سعيد ، كان فى صورة المظلوم ؛ لأن عمرو بن سعيد نكث[٣] بيعته ، وخان أمانته ، وأفسد رعيته، وحملهم على النكث والغدر ، ووثب على دار ملك لم يكن له ولا لأبيه بل كان لعبد الملك ولأبيه من قبله ، وعمرو بن سعيد عليها معتد ، ولها مغتصب . وإنه كان يقال : سمين الغصب مهزول ، وولى الغدر معزول . وكان يقال : جيش العدوان مفلول ، وعرش الطغيان مثلول[٤] .

وسأضرب لك مثلا يشفى النفس ، وينفى البأس ، وأودعه من فقر الحكم ما

---

(١) إلحاحاً .
(٢) أى رجع عما يفعله .
(٣) نقض .
(٤) هالك .

يشحذ[١] الفطن والألباب ، ويسفر عن وجه الصواب .

قال الشيخ : زعموا أن ثعلبا كان يدعى ظالما ، وكان له جحر يأوى إليه ، وكان مغتبطا به لا يبتغى عنه حولا ، فخرج يوما يبتغى ما يأكل ، ثم رجع فوجد فيه حية فانتظر خروجها عنه فلم تخرج ، وعلم أنها قد أوطنته ، وذلك أن الحية لا تتخذ جحرا أو تدخل الجحر فتغتصبها ، وتطرد عنها ما كان فيها من الحيوان، قال الراجز يصف رجلا بالظلم :

وأنْتَ كَالأَفْعَى التى لا تَحْتَفِر ثُم تَجْبِى شَارِدَةً فَتَنْحَجِر[٢]

ولذلك قالوا : فلان أظلم من حية ، فهذا ظلمها ، ولما رأى ظالم أن الحية قد أوطنت جحره ، ولم يمكنه السكوت معها ذهب يطلب لنفسه مأوى ، فانتهى به الطواف إلى جحر حسن الظاهر ، حصين الموضع ، فى أرض خصبة ذات أشجار ملتفة وماء معين ، فأعجبه وسأل عنه ، فأخبر أن ذلك الجحر لثعلب يدعى مفوضا، وأنه ورثه عن أبيه ، فناداه ظالم ، فخرج إليه ورحب به وأدخله الجحر ، وسأله عن ما قصد له فقص عليه خبره وشكا إليه ما ناله ، فرق له مفوض ، ثم أقبل عليه فقال له : إن من الهمة ألا تقتصر عن مطالبة عدوك ، وأن تستفرغ جهدك فى ابتغاء دفعه وهلكه . وإنه كان يقال : من تهيب عدوه فقد جيش إلى نفسه جيشا . وكان يقال : رب حيلة أنفع من قبيلة . وكان يقال : الموت فى طلب الثأر خير من الحياة فى العار . وكان يقال : إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه عنك ، وإذا طالبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وإن كان عظيما .

والرأى عندى أن تنطلق معى إلى مثواك الذى انتزع منك غصبا ؛ حتى تطلع عليه فلعلى أن أهتدى إلى وجه مكيدة فى تمكينك منه ، فإن أفضل الرأى ما أسس على الرؤية . ولهذا قيل : يفسد التدبير بثلاثة أسباب أحدها : أن يكثر الشركاء فيه ، فإذا كان كذلك انتشر التدبير وبطل . والثانى : أن يكون الشركاء فى التدبير متحاسدين متنافسين فيدخله الهوى والبغى فيفسد . والثالث: أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبر دون من باشره وشاهده ، فإذا كان كذلك دخله

(١) يصقل .

(٢) تنحجر : أى تتخذ ما يلاقيها من الحجور موطناً لها .

حقد المباشر الحاضر وفوت الفرص ، ثم أن تدبير المسموعات مؤسس على ظنون الخبر ، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر .

فانطلقا معا إلى ذلك الجحر فتأمله مفوض وعلم ما أراد علمه ، ثم أقبل على ظالم فقال له : قد شاهدت من أمر مسكنك ما فتح لى باب المكيدة ، وسفر لى عن وجه الرأى فيه .

فقال ظالم : أطلعنى على ما ظهر لك .

فقال مفوض : إن أضعف الرأى ما سنح فى البديهة ، وإنه كان يقال: الرأى مرآة العقل ، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره ، وكان يقال : أفضل الرأى ما أجادت الفكرة فقده ، وأحكمت الروية عقده ، وكان يقال : الرأى سيف العقل ، ولما كان أمضى السيوف ما بولغ فى إرهاف حده[1] ، وأجيد صقله ؛ كان أنجح الآراء ما أكثر امتحانه وأطيل تأمله[2] ، وكان يقال : كل رأى لم تتمحص[3] فيه الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام ، ثم قال له : انطلق معى فبت الليلة عندى لأنظر ليلتى هذه فيما سنح لى من المكيدة ، ففعلا وبات مفوض مفكرا فى ذلك ، وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض ، فرأى من سعته وطيب تربته، وحصانته وكثرة مرافقه ؛ ما اشتد له إعجابه به وحرصه عليه، وطفق يدبر الحيلة فى غصبه ونفى مفوض عنه .

وكان يقال : اللئيم كالنار إكرامها إضرامها[4] ، وكالخمر حبيبها سليبها ، وتبيعها صريعها ، وكان يقال : إذا كانت الإساءة طبعا ، لم يملك لها الإحسان دفعا ، وكان يقال : العاقل يقدم التجريب على التقريب ، والاختبار على الاختيار، والثقة على المقة[5].

فلما أصبحا ، قال مفوض لظالم : إنى رأيت ذلك الجحر بعيدا من الشجر

---

(١) أى رقق حده .

(٢) أى طال تأمله .

(٣) تدقق وتختبر .

(٤) إيقادها وإشعالها .

(٥) أى الذى أثق فيه خير ممَّن أُحِبُّه ، والمقة هى : الحُبُّ .

والخضرة ، فاصرف نفسك عنه ، وهلم أعنك على احتفار مسكن بهذا المكان المتيسر المرافق .

فقال له ظالم : إن ذلك يُمكنني ؛ لأن لي نفسا تهلك لبعد الوطن حنينا ، ولا تملك مع فقد السكن سكونا ، وأنه كان يقال : دلائل الوفاء سبعة : بر الآباء والأمهات ، وصلة ذوى القرابات ، والنزاع إلى الوطن[١] ، والجزع على السكن، والحزن لأخلاق الشباب ، واللبس لأخلاق الثياب[٢] ، والصبر على هرم الدواب. وكان يقال : الغريب ميت الأحياء قد أعاده البين[٣] ، أثرا بعد عين.

وقيل : إن حروف الغربة مجموعة من أسماء دالة على محصول الغربة :

فالغين من : غدر ، وغيبة ، وغبن[٤] ، وغم ، وغلة[٥] ، وهى : حرارة الحزن، وغيرة ، وغَول[٦]، وهى : كل مهلكة .

والراء من : رُزء[٧] ، وروع ، وردى ، وهو : الهلاك .

والباء من : بلوى ، وبؤس ، وبوار ، وهو : الهلاك .

والهاء من : هون ، وهوان ، وهم ، وهلك .

فلما سمع مفوض مقالة ظالم وما تظاهر به من الرغبة فى وطنه قال له : إنى أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطبا ونرتبط منه حزمتين ، فإذا أقبل الليل انطلقت أنا إلى بعض هذه الخيام فأخذت قبس[٨] نار واحتملنا الحطب والقبس وقصدنا إلى مسكنك ، فجعلنا الحزمتين على بابه واضرمناهما نارا ،

---

(١) أى الحنين إلى الوطن .

(٢) أى الثياب البالية القديمة .

(٣) الفراق والبعد .

(٤) الظلم .

(٥) حرارة الجوف ، والمراد بها شدة الحزن كما رأى المؤلف .

(٦) من معانيه الصراع وبعد المفازة والمشقة .

(٧) المصيبة .

(٨) هى شعلة النار التى تؤخذ من معظم النار .

فإن خرجت الحية احترقت ، وإن لزمت الجحر أحرقها الدخان .

فقال ظالم : نِعْمَ الرأى هذا ، فانطلقا فأحطبا ربطا من الحطب حزمتين بقدر ما يطيقان حمله ، ولما جاء الليل وأوقد أهل الخيام النار انطلق مفوض ليأخذ قبساً، فعهد ظالم إلى إحدى الحزمتين فأزالها إلى موضع غيبها فيه ، ثم جر الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض ودخله وجرها إليه فأدخلها فى الباب فسده بها، وقدر فى نفسه أن مفوضاً إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته ولأن بابه مسدود بالحطب سدا محكما ، فأكثر ما يقدر عليه أن يحاصره ، فإذا يئس منه ذهب ينظر لنفسه مأوى ، وقد كان ظالم رأى بجحر مفوض طعمة ادخرها مفوض لنفسه ، فعول ظالم على الاقتيات منها فى مدة الحصار ، وأذهله الشره والحرص والبغى عن فساد هذا الرأى ، وأنه متعرض لمثل ما عزم مفوض أن يفعله بالحية .

وكان يقال : احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك من تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ومكر ، وساقط فى البئر التى احتفر ، وجريح بالسلاح الذى شهر . ثم إن مفوضا جاء بالقبس فلم يجد ظالما ولا وجد الحطب ، فظن أن ظالما قد احتمل الحزمتين معه تخفيفا ، وأنه بادر بهما نحو جحره إشفاقا أن يأتى مفوض فيحمل أحدهما فشق ذلك عليه فظهر له من الرأى أن يترك القبس ويبادر إليه فيلحقه ليحتمل معه الحطب ، فألقى القبس من يده ثم كره أن تنفذ النار فيحتاج إلى طلب قبس آخر ، فأدخله فى باب الجحر ليستره بذلك فأصاب الحطب فأضرمه نارا واحترق ظالمٌ فى الجحر وحاق به مكره .

فلما اطلع مفوض على أمر ظالم قال : ما رأيت كالبغى سلاحا أكثر عمله فى متحمله .

ولهذا قيل : الباغى باحث عن مدية[١] حتفه بظلفه[٢] ، ومتردد فى مهاوى تدميره بمساوى تدبيره .

وقيل : ما اجتمع البغى والملك على سرير[٣] إلا خلى .

---

(١) السكين .

(٢) الظلف : حافر الدابة .

(٣) أى العرش .

وقيل : لكل عاثرٍ راحم إلا الباغى ، فإن القلوب مطبقة على الشماتة بمصرعهِ

وقيل : ما أعطى البغى أحدا شيئا قط إلا أخذ منه أضعافه . ثم إنَّ مفوضا أمهل حتى طفئت النار فدخل جحره ، فاستخرج جيفة ظالم فألقاها وأوطن جحره على حالٍ تحفظٍ واحتراس واستعداد لكيد الكائدين .

فهذا مثل عمرو بن سعيد ، فى بغيه ومخادعته عبد الملك ، ومخالفته إلى دار ملكه وتحصنه فيها ، وقد كان عبد الملك فى مخرجه إلى محاربة ابن الزبير عاملا فيما يريد به عِزَّ عمرو بن سعيد وبقاء الملك فى أهل بيته وخروجه عن ابن الزبير ، إذ كان عز عمرو ابن سعيد عز عبد الملك ، وملكه ملكا له ، فلم يرض عمرو سعيه ولا أعانه على مصلحة نفسه ، وفعل كفعل ظالم مع مفوض سوء .

فلما سمع عبد الملك ما ضربه الشيخ من المثل ، واستبصر فيما أودعه من الحكم ؛ سرّ بذلك سرورا شديدا ، ثم أقبل على الشيخ فقال له : جزيت خيرا فقد عظمت يدك عندى ، وإنّى لأوثر أن تجعلَ بينى وبينك موعدا ، وتذكر لى مكانك لألقاك به بعد يومى هذا .

فقال له الشيخ : وما الذى تريد بذلك ؟ فقال عبد الملك : إنى أريد أن انتفع برأيك عند الأمير فأكافئك على ما كان منك .

فقال الشيخ : إنى أعطيت الله عهدا ، ألا أتحمل منّة لبخيل .

فقال له عبد الملك : ومن أين علمت بخلى ؟ .

فقال الشيخ : كيف لا أعلم بخلك ، وقد أرجأت صلتى ومكافأتى مع القدرة على تعجيلها ، فما عليك لو وصلتنى ببعض ما أرى عليك من السلاح والبزة السنية(١) .

فقال له عبد الملك : أقسم بالله لقد ذهلت ، ثم نزع سيفه وقال : اقبل منى سيفى هذا ولا تخدع عنه فإن قيمته عشرون ألف درهم .

فقال الشيخ : إنى لا أقبل صلة ذاهل ، فدعنى وربى الذى لا يبخل ولا يذهل فهو حسبى .

---

(١) الثياب الفاخرة .

فلما سمع عبد الملك مقالته علم فضله فى دينه وقال له : إنى أنا عبد الملك فاعتمدنى وارفع إلىَّ حوائجك .

فقال الشيخ : وأنا أيضا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان . فانطلق عبد الملك فعمل برأيه فأنجح .

فلما سمع الوليد بن يزيد ما أخبر به ذلك الكهل ، استرجع عقله واستظرف أدبه وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له : إن من جهل مثلك من رعيته لمُضَيِّع .

فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين إن الملوك لا تعرف إلا من تَعَرَّف إليها ولزم أبوابها .

فقال الوليد : كلا والله فلا توسعنا عذراً لا نستحقه ، ثم أمر له بصلة معجلة وعهد إليه فى ملازمة بابه عهدا فكان يستمتع بأدبه إلى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور .

روضة رائقة ، ورياضة فائقة

قيل : لما عزم أمير المؤمنين محمد الأمين(١) على إخراج عهد الخلافة عن أخيه عبد الله المأمون(٢) ، والمأمون إذ ذاك مقيم بخراسان(٣) كتب إليه الأمين

---

(١) محمد الأمين : أبو عبد الله محمد بن الرشيد هارون ، ابن المهدى محمد ، ابن المنصور، الهاشمى العباسى البغدادى ، الخليفة . وأمه زبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور . عقد له أبوه بالخلافة بعده ، فكان مليحاً ، بديع الحسن ، أبيض وسيماً طويلاً ، ذا قوة وشجاعة وأدب وفصاحة ، ولكنه سيىء التدبير ، أرعن لعوباً ، مع صحة إسلام ودين . عاش الأمين سبعاً وعشرين سنة ، وقتل فى المحرم سنة (١٩٨هـ) وخلافته دون الخمس سنين، سامحه الله وغفر له . سير أعلام النبلاء (١٤٤٣) .

(٢) المأمون : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور العباسى ، الخليفة ، أبو العباس . ولد سنة (١٧٠هـ) وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل ، وأمر بتعريب كتبهم ، وبالغ ، وعمل الرصد فوق جبل دمشق ، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ ؛ نسأل الله السلامة . وكان من رجال بنى العباس حزماً وعزماً ورأياً وعقلاً وهيبة وحلماً ، ومحاسنه كثيرة فى الجملة . مات فى رجب فى ثانى عشرة سنة (٢١٨هـ) . وله (٤٨) سنة . سير أعلام النبلاء (١٦٣٠) .

(٣) خراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلى العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلى الهند طخارستان وغزة وسجستان وكرمان وتشتمل على أمهات من البلاد منها : نيسابور وهراة ومرو . وهو إقليم فى شرق إيران حالياً . على الحدود

كتابا يذكر فيه حاجته إلى لقائه ومفاوضته فى مهم حدث ، ويسأله أن يستتيب بخراسان من يضبطها ويعجل الشخرمى إلى بغداد[(١)] ، وكتب إلى المأمون عيونه فأشاروا عليه بالتثبيت والتعلل والاعتذار بشعب خراسان وتطلع من يليها من الكفار إلى الفرصة فيها وأنه لايجد من يثق بكفايته لأمرها .

وقال له عيونه الذين ببغداد : إن الأمين يريد خلعه من عهد الخلافة ونقل عهده إلى موسى بن محمد الأمين ، فلما وقف المأمون على ما كتب له أخوه وعيونه إليه شاور وزراءه.

فكتب المأمون إلى الأمين بذلك فعاود الأمين بذلك مكاتبته وأنه لو قدم عليه لقل لبثه ببغداد حتى يرجع ، وإنما يريده كى يفاوضه فى خطب جسيم لا تودع مثله الكتب ، فحين انتهى كتابه إلى المأمون أطلع عليه وزراءه واستشارهم فأشاروا عليه بمثل رأيهم الأول .

فكتب إلى الأمين بنحو ما كتب إليه أولا ، وكتب إلى الأمين عيونه بخراسان: أن المأمون قد فطن لما يراد منه وأنه ممتنع مشاقق ، وأن وزراءه اجتمعوا على أمره بالامتناع ، فيئس الأمين من تمام مكيدته لأخيه ، وأمر بالقبض على من ببغداد من حشم المأمون وحرمه وبطانته وما ظهر عليه من أمواله ، وبلغ ذلك المأمون ، فخامره الجزع وشاور وزراءه فثبتوا على رأيهم وحَضُّوه على التثبيت وانتظار الفرج ففعل.

ولما رأى الأمين إصرار أخيه المأمون على الامتناع دعا الناس إلى البيعة لابنه موسى فأجابوه إلى ذلك وبايعوا له وسماه : الناطق بالحق، واستكفل له على بن عيسى بن ماهان[(٢)] فجعله فى حجره ، وكان على بن عيسى بن

الأفغانية . معجم البلدان (٤١٦٤) .

(١) بغداد : أم الدنيا وسيدة البلاد ، مدينة بالعراق على نهر دجلة وهى عاصمتها ، كانت عاصمة الخلافة العباسية ، ومن عواصم الإسلام التاريخية الهامة . وتسمى مدينة السلام أيضاً . معجم البلدان (٢٠٢٠) .

(٢) على بن عيسى بن ماهان : من كبار القادة فى عصر الرشيد والأمين وهو الذى حرَّض الأمين على خلع المأمون فى ولاية العهد ، وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير ، ولاه إمارة الجبل وهمذان ، وأصبهان ، وقم ، وحارب جيش المأمون بقيادة طاهر بن

ماهان قد ولى خراسان قبل ذلك مدة طويلة فاصطنع بها الرجال واعتقل المِنَن فى الأعناق[1] ، وكان شأنه بخراسان عظيما فاستشاره الأمين فى أمر خراسان فضمن له أمرها وأخبره أنه لو بلغ خراسان لم يختلف عليه اثنان ممن هو بها .

فجهزه الأمين إليها وولاه كل بلد يغلب عليها ، وأعطاه أموالاً جزيلة وجهز معه جمهور جنوده وأصحبه من السلاح والكراع[2] ما شاء ، وبلغ ذلك المأمون فاضطرب أمره وعلم عجزه عن مقاومة على بن عيسى ، فركب إلى منتزه له ليناظر وزراءه فى تدبير أمره ، فعارضه شيخ هرم من الفرس ؛ مجوسى ، فناداه بالفارسية مستغيثا من مظلمة نالته ، فلما نظر المأمون إلى هرمه رق له وأمر أن يحمل على دابة ويتبع به إلى الموضع الذى قصده ويدخل عليه بغير استئذان ، ولما استقر المأمون ووزراؤه بذلك الموضع الذى قصدوه أدخل عليه الشيخ الفارسى فأمره بالجلوس فى حاشية المجلس ، ثم أقبل على صحابته ، فأخبرهم بما صنعه أخوه الأمين من القبض على حاشيته وماله ، وتجهيزه على ابن عيسى وهو يظن أن الشيخ لا يحسن اللسان العربى وأن ما به من الهرم شاغل له عن الإصغاء إلى ما هم فيه مع ما حمله على ذلك من القلق والاضطراب .

فلما رأى القوم أن المأمون لم يتحفظ من الشيخ تفاوضوا فيما جلسوا له فطالت مناظرتهم إلى أن قال أحدهم : الرأى اصطناع قوم من الاغتام[3] الذين لايعرفون على بن عيسى فيلقى بهم .

وقال غيره : الرأى أن يبادر بالإرسال إلى الأمين بطلب الصفح وبذل الانقياد لأمره فإنه يرى ذلك حظا .

وقال غيره : الرأى أن يلجأ إلى بعض المعاقل فيعتصم به وينتظر الفرج .

وقال غيره : الرأى أن نجمع أهل النجدة فنزيح عللهم ، ثم نقصد بعض هذه الممالك المجاورة لنا من ممالك الكفار فنصدقهم القتال ، فلعل الله أن يظفرنا

حسين فى الرأى فقتل ، وانهزم أصحابه ، مات سنة (١٩٥هـ) . الكامل لابن الأثير (٧٩/٦) ، البداية والنهاية (٢٢٦/١٠) .

(١) المنن : أى الفضل والقوى .

(٢) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .

(٣) الأغتام ، مفردها : غتم وهو من لا يفصح فى كلامه (الأعجام) .

فنصير إلى مملكة تؤوينا وينزع إلينا من هو على مثل رأينا فنمتنع ونجاهد فى سبيل الله عز وجل حتى يقضى الله أمره .

وقال غيره : الرأى عندى أيها الأمير أن ينحاز الأمير إلى ملك الترك مستجيرا به ومستغيثا على أخيه الغادر القاطع ، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به .

فلما سمع المأمون هذه المقالة ركن إليها وعول على هذا الرأى ، ثم فكر فقال: كيف أجعل للترك على حرب المسلمين سبيلا وقال لأصحابه : قوموا عنى فنهضوا أجمعون ، والتفت فرأى الشيخ الفارسى فقربه ورفق به وسأله عن أمره وما قصد له على لسان ترجمان أقامه له فقال الشيخ بلسان عربى : أيها الأمير إنى جئت لحاجة فعرض لى دونها ما هو آكد منها وأولى .

فقال المأمون : قل ما أحببت سالكا سبيل الأدب .

فقال الشيخ : أيها الأمير : إنى دخلت إليك غير متصف بالمحبة لك ثم ألقى الله تعالى فى قلبى من المحبة للأمير ما ملأه وأنه كان يقال : الرق ثلاثة أنواع : فأولها وأشدها استيعابا للباطن والظاهر رق الاختراع وهو الرق لله صانع الأشياء ومخترعها ، والثانى : رق الاصطناع وهو رق المنعم عليه للمنعم ، والثالث : رق الاتباع ، وهو صنفان : أحدهما : رق الحب وهو أقربها إلى رق الاختراع لأن له سلطانا متسلطا على الباطن والظاهر . والثانى : رق الرعية لراعيها ، ورق العبيد لسادتها ، وأنا أخبر الأمير أعزه الله أنه قد تظافرت له على ثلاث قوى من الرق : رق الحب ، ورق الاصطناع ، ورق الاتباع ، فإن رأى الأمير أعزه الله أن يوسل وسيلتى ويصدق أملى ، ويسعف طلبى فيلحفنى[(١)] رداء اختصاصه ، ويكرمنى بمكاثرة أوليائه ونصائحه ، فعل ذلك متطولا[(٢)] به غير محتاج إليه ، وإنَّ عبده ليرجو أن تصادف الصنيعة منه شاكرا، والاختصاص منه مشفقا ناصحا .

فقال له المأمون : ما دينك أيها الشيخ ؟ قال : مجوسى . فأطرق المأمون

(١) أى يمنحنى .
(٢) أى متفضلاً .

مفكرا فيما تكلم به .

فقال الشيخ : لا يصدن الأمير عنى حقارة قدرى عنده فإنه كان يقال : لا تحقرن من الاتباع أحدا فإنك تنتفع به كائنا من كان ، وهو أحد رجلين ، إما شريف فتتجمل به ، وإما وضيع فيحمى عرضك ويصون مروءتك وعلى أنى لست أعنى بحقارة قدرتى عند الأمير حقارة أخلاق ، ولا حقارة أعراق ، فأمّا أخلاقى فامتحانها بيد الأمير ، وأما أعراقى[1] فإنى برهمى من براهمة البرهميين[2] سيد ملوك الفرس المتوسط بينها وبين أول الأوائل ، وإنما أعنى حقارة دينى عند الأمير وكونى فى عقد ذمته[3] ، وصغار جزيته[4] .

فقال المأمون : ما بِنا عنك أيها الشيخ من رغبة ، وإن انتقلت من ذمتنا إلى ملتنا ألحقناك شعارا .

فقال الشيخ : إن الباعث من نفسى إلى ما دعانى إليه الأمير لسديد ، ولكن لا أفعله فى مقامى هذا ، ولعلى أن أفعله فيما بعد ، ثم قال : أيأذن لى الأمير أن أتكلم فيما فاوض الآن وزراءه فيه ، فقال له المأمون : نعم .

فقال الشيخ : قد سمعت ما أشار فيه وزراء الأمير وكل منهم مجتهد فى الإصابة ولست أرضى شيئا مما ذهبوا إليه ، فقال له المأمون : أطلعنا على ذلك.

فقال الشيخ : إنى أجد فى الحِكَمِ التى ورثها آبائى عن آبائهم : أنه ينبغى للعاقل إذا دهمه ما لا قبل له به أن يلزم نفسه التسليم لحكم قاسم الحظوظ و لا يضيع من ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته ، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العذر فقال المأمون : أيها الشيخ : إنه كان يقال : لا رأى لكذوب ، وقد سمحت أنفسنا لك بالثقة من غير امتحان ، وما ذلك لاختيارنا إضاعة

---

(١) أى نسبى وأصلى .

(٢) البراهمة : هم خدمة إله الهنود (برهما) يعبدون كل شيء سوى الله سبحانه وتعالى .

(٣) أى أنه من أهل الذمة .

(٤) الجزية : والجمع جزى وجِزاء : ما يؤخذ من الذمى لأنها تجزى عنه أى تكفيه معاملة الحربيين.

الحزم، ولكننا أحببنا أن نذيقك ثمرة حبنا بالمكاشفة الدالة على القبول ، وها نحن نخبرك أن هذا المتوجه إلينا ؛ يعني علي بن عيسى هو أملك بالبلد منا ، لا يمكننا مقاومته ، ولو أردنا ذلك لتعذرت الأموال قبلنا . فقال الشيخ : أيها الأمير : ينبغي أن تمحو هذا الأمر من قلبك بالجملة ، ولا تصغي إلى من ينطق به فإنه كان يقال : ما كَثُر مَنْ كَثَّرَهُ البغيُ ، ولا قوى مَنْ قَوّاهُ الظُلْمُ ، ولا مَلِكَ من مَلَكَهُ الغَضَبُ ، وها أنا أحدثك عمن إن حذوت مثاله نلت مناله .

فقال له المأمون : هات .

فقال الشيخ : إن الخنشوار[١] ملك الهياطلة[٢] ، لما أسر فيروز بن يزدجرد[٣]، ملك فارس وأراد إطلاقه ، أخذ عليه عهدا ألا يغزوه ولا يقصده بمكروه ووقع في أقصى تخوم[٤] أرض الهياطلة صخرة ، وأخذ على فيروز عهدا ألا يجاوز تلك الصخرة ، ولما استوثق الخنشوار من فيروز بما أخذ عليه من عهود المسالمة أطلقه ، فحين رجع فيروز إلى دار ملكه داخلته الحمية والأنفة ، فعزم على غزو الخنشوار وأطلع وزراءه على ذلك ، فحذروه النكث ، وخوفوه عاقبة البغي ، فما ردعه ذلك عما هَمَّ به ، وأذكروه العهود التي أخذ عليه ، فقال لهم : إني إنما حلفت له ألا أتجاوز تلك الصخرة ، وأنا آمر بحملها على فيل فتكون بين يدي جنودي لا يجاوزها أحد منهم .

فلما رأوا أن الهوى قد وقف به على حد الرضا بهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته ، فأمسكوا عنه واعتقدوا أن لا يراجعوه في ذلك .

وكان يقال : الهوى صدأ يعلو العقل فلا تنطبع فيه صورة الحقائق .

وكان يقال : ما لم يبلغ الهوى حد اللجاج فهو نشوة السكر ، فإذا بلغ اللجاج فذلك دين السكر وقوة سلطانه .

---

(١) الخنشوار : اسم ملك من ملوك الهياطلة .

(٢) الهياطلة : شعوب آسيوية من غزاة العالم القديم ، أصلهم من سيبيريا ومنغوليا .

(٣) فيروز بن يزدجرد : ملك فارس بن يزدجرد بن شاهبور وهو أحد ملوك فارس الساسانيين. البداية والنهاية (٧/٣١) .

(٤) التخوم ، مفردها التخم : وهو الحد .

وكان يقال : لا ترشد الهوى فى حال استيلاء الشهوة والغضب عليه ؛ لأنها حال احتجاب عقله ، وذلك أن الهوى أملك بالنفس لتقدم سلطانه عليها ، فاما سلطان العقل فطارئ مستفاد ، وللعقل حجابان وهما الشهوة والغضب ، فلا يزال العقل ناظرا إلى الهوى قاهرا له ما لم يحجبه غضب أو شهوة فحينئذ ينبسط سلطان الهوى وينفذ حكمه .

قال : فجمع فيروز مرازبته[١] ، وهم أربعة يتبع كل سلطان منهم خمسون ألف مقاتل ، كان كل واحد منهم ضابطا لربع من أرباع مملكة بابل[٢] ، وأمرهم بالتجهز لحرب الهياطلة ، ففعلوا وسار فيروز نحو الخنشوار فى جيوش يظن أنه الغالب ، وكان الخنشوار يضعف عن مقاومة مرزبان من مرازبة فيروز ، وإنما كان ظفره بفيروز أولا لمكيدة ليس هذا موضع ذكرها .

وقد كان موبذان ، وهو عند الفرس كالنبى ، قال لفيروز حين رأى عزمه على غزو الخنشوار : لا تفعل أيها الملك ، فإن رب العالم يمهل الملوك على الجور ما لم يأخذوا فى هدم أركان الشريعة ، فإذا أخذوا فى ذلك لم يمهلهم ، وإن العهود والمواثيق ركن من أركان الشريعة فلا تعرض له بسوء ، فلم يلتفت فيروز إلى هذه المقالة وركب رأيه فى معصية نصحائه .

وكان يقال: يستدل على إدبار الملوك بخمسة أمور :

أحدها : أن يستكفى الملك بالأحداث ومن لا خبرة له بالعواقب .

والثانى : أن يقصد أهل مودته بالأذى .

والثالث : أن ينقص خراجه عن قدر مؤونة المملكة .

والرابع : أن يكون تقريبه وإبعاده للهوى لا للرأى .

والخامس : استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوى الحنكة .

وكان يقال : من عصى نصيحا فقد استفاد عدوا .

---

(١) المرزبان : جمع المرازبة : الرئيس عند الفرس (كلمة فارسية) .

(٢) بابل : اسم ناحية من الكوفة والحلة ينسب إليها السحر والخمر ، وهى من أشهر مدن الشرق القديم وأكبرها ، وأنقاضها حالياً على نهر الفرات شرقى بغداد . معجم البلدان (١٢٦٨) .

وكان يقال : إنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكرى وضعفه ؛ فمن قوى تخيل فكره فهو فى سلطان الرأى غالب ، ومن ضعف تخيل فكره فهو فى سلطان الهوى غالب ، وعلى حكم هذا القانون فمَنْ عدم الفكرة فى الأمور التحق بالبهائم .

ثم قال الشيخ الفارسى : وإن فيروز سار قاصدا نحو الخنشوار حتى إذا انتهى إلى تلك الصخرة التى نصبها الخنشوار علَمًا لتخوم أرضه ، واستحلف فيروز ألا يجاوزها . أمر فيروز بقلعها وحملها على فيل ، وأن يكون الذى يحملها بين يدى عسكر فيروز ، ونَهى ألا يتجاوز ذلك الفيلَ أحدٌ من المعسكر ، فما أبعد عن ذلك الموضع الذى كانت الصخرة فيه حتى جاءه رجل من ثقات أصحابه فأخبره ؛ أن أسوارا[1] عظيم القدر من أساورته قتل رجلا مسكينا ظلما وعدوانا ، وجاء أخو ذلك المسكين المقتولِ فاستغاث بفيروز وتظلم من الأسوار قاتل أخيه ، فأمر فيروز بمال يرضيه به من دم أخيه ، فأبى قبول المال وقال : لا يرضينى إلا دم قاتل أخى، فأمر فيروز بطرده فانطلق من فوره إلى الأسوار الذى قتل أخاه فشد عليه بخنجر فى يده ، فلما رآه الأسوار حرك فرسه هاربا بين يديه ، وانتهى الخبر إلى فيروز فتعجب من ذلك فنزل وزير من وزراء فيروز عن دابته ، وتقدم بين يدى دابة فيروز فسجد له ، فسأله فيروز عن أمره ، فذكر أنه يريد الخلوة معه فى مُهمّ عرض له ، فأمر فيروز فضرب له فسطاط فنزل فيه وأذن لذلك الوزير فدخل عليه وأمره بذكر ما عنده .

فقال له : أيها الملك السعيد : ملكت الأقاليم السبعة[2] وعمرت عُمر بيوراسف[3] فى مثل عزته وقوته ، لقد ظهرت غياته أول الأوائل بك بما ضربه لك من المثل فى أمر هذا الأسوار إذ كان أسوارا نجدا هرب بين يدى مسكين

(١) كلمة فارسية تعنى القائد الجيد الرمى بالسهام الثابت على ظهر الفرس .

(٢) الأقاليم السبعة : هو تقسيم الحكماء للمعمور من الأرض وهو يبدأ من الشمال إلى الجنوب، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . مقدمة ابن خلدون (٨٩).

(٣) بيوراسف : من ملوك الفرس العظماء ، وكان لقبه الضحاك وهو اعراب دَهَاك معناه : ذو عشرة آفات مفاتيح العلوم (٦٣) .

فى يده خنجر ، وما ذاك إلا لبغيه وتعديه .

فقال فيروز : إنه لم يفر منه لعجزه عنه ؛ بل لخوفه منا ، ولم يكن ليفعل تلك الفعلة القبيحة ثم يشفعها بمثلها.

فقال الوزير: أيها الملك : أرأيت إن دعوته إلى مبارزة ذلك المسكين ، وأمنته من سطوتك فظهر ذلك المسكين عليه ، أما تعلم أن هذا مثل ضربه لك قَيِّم العالم[1] ؟ .

فقال الملك : لأفعلن ذلك ، ثم إنه أحضر الأسوار فأمنه وأمره بمبارزة ذلك المسكين الثائر بأخيه ، فأجاب إلى ذلك وجمع عليه سلاحه وركب فرسه ، وأتى بذلك المسكين ، فعرض عليه مبارزة الأسوار فأظهر الرغبة فيها والحرص عليها، فخوف من الهلاك فلم يخف .

فقيل له : أما ترى درعه وسلاحه وفرسه ، أما سمعت بفروسيته ونجدته وإقدامه ، إنك مهلك نفسك ومستميت ، ولا إثم علينا فيك .

فقال المسكين : دعونى وإياه ، فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لابس درع الشك وأنا لابس درع الثقة ، وهو مقاتل بسيف البغى ، وأنا مقاتل بسيف الحق .

فقال الوزير لفيروز : أيها الملك : إن كلام هذا المسكين أبلغ فى التمثيل[2] والموعظة من ظفره بهذا الأسوار ، فصن أسوارك واستبق نفسه ولا تعرضه للهلكة بلقاء هذا المسكين ، واعمل فى رضاء هذا المسكين بالإحسان إليه ، فإن لم يرضه إلا القصاص ، فاقض له بالعدل ألوف منك ، واستدم عناية الأول الآخذ بك بعنايتك بالحق الذى يرضيه العمل به ويسخطه اجتنابه .

فقال فيروز : لابد من أن أخلى بينهما وأنظر إلى ما يكون منهما ، إن كان المسكين يختار ذلك ويرغب فيه ، فأعاد وعرض مبارزة الأسوار على المسكين، فأصر على الرغبة فيها والحرص عليها ، وخوفوه الهلاك فلم يزده تخويفهم إلا جراءة وإقداما .

---

(١) القيِّم على الأمر : متوليه ، وقيم العالم : خالصه ومتوليه سبحانه وتعالى .

(٢) التمثيل : تصوير الشىء كأنه ينظر إليه .

فقيل للأسوار : ألقه ولاتخس عنه[١]، فحمل كل واحد منهما على صاحبه فالتقيا ، وقبض المسكين على شكيمة[٢] فرس الأسوار وضربه الأسوار بالسيف ضربة تطأطأ لها المسكين ، فأصاب ذباب السيف[٣] أليته[٤] فأثر فيها أثرا ليس بالكبير ، ثم ثار إليه المسكين فضربه بالخنجر فى عنقه وجذبه فصرعه ، ثم ضربه وهو ملقى ضربة أخرى ، فأدخل سن الدرع حلقات فى جوفه ، وقضى عليه. فبات فيروز تلك الليلة فى موضعه ذلك يفكر فيما يأتيه من الأمر ، ثم إنه استقاد لهواه فنفذ لوجهه .

وكان يقال : أول الهوى هوان[٥] ، وآخره هون[٦] .

وكان يقال : الهوى طاغية ، فمن ملكه أهلكه .

وكان يقال : الهوى كالنار إذا استحكم إيقادها عسر إخمادها ، وكالسيول إذا اتصل مدها تعزر صدها .

وكان يقال : ليس الأسير من أوثقه عداه أسرا ، إنما الأسير من أوثقه هواه قسرا وأرهقه خسرا .

قال الشيخ : ولما علم الخنشوار قصد فيروز لحربه ، حمل نفسه على التثبت ووَكَّل أمره إلى الأول الآخر ، وسأله أن يغضب لعهوده ومواثيقه التى لم يرع فيروز حقها ، ولاخاف تبعة نكثها ، وأخذ مع ذلك بحظه من الحزم فسد ثغوره ، وجمع إليه جنوده ، وأعد للقاء فيروز عدته ، وأمهل حتى وطئ فيروز كثيرا من أرضه وتوسط مملكته ، وعاث فى بلاده[٧] ، وساء على رعيته أثره ، فنهض إليه ففاجأه وصدقه الجلاد ، فانكشف فيروز منهزما وأسلم ما كان فى يديه ، فقتل الخنشوار رجاله وغنم أمواله وأمعن فى طلب فيروز حتى ظفر به فقتله ، وأسر أهل بيته وحماة أصحابه ، فكانت العاقبة له .

---

(١) أى لا تغفل عنه .
(٢) لجام الفرس .
(٣) أى طرف السيف .
(٤) الإلية : العجيزة أو ما ركب العجز وتدلّى من شحم ولحم .
(٥) الذل .
(٦) ضعف .
(٧) أى أفسد فى بلاده .

فلما سمع المأمون ما ضرب له الفارسى مثلاً ، أقبل عليه مستبشراً وقال له: قد سمعنا مقالتك فصادفت منا قبولا لها ، وشكراً عليها وسروراً بها ، فبماذا ترى فيما دعوناك إليه من توحيد الله عز وجل ؛ الذى أجزل من العقل حظك ، وفتق بالمعرفة فكرك ، وأنطق بالحكمة لسانك ، وقطع بمحمد ﷺ عذرك[1] .

فقال الشيخ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فسر المأمون بإسلامه وأجزل صلته ، وقرب منزلته ، فألحقه بخاصة أصحابه ، وأمره بملازمة بابه ، فما لبث إلا أياما قلائل حتى لحق بربه ، وعمل المأمون برأيه ، فأنجح الله عمله ، وبلغه من الخلافة أمله .

(١) أى لا حجة لك فى شركك ببلوغك رسالة محمد ﷺ .

السلوانة الثانية

سلوانة التأسى

أنزل الله ربنا تقدس اسمه من السورة المذكور فيها الأحزاب آيات معجزات طبقن المفصل المقصود بهذا الكتاب وهو تأسى الملوك فى طوام العوام[1] ، والله ربنا المحمود على الهداية إليها ، والدلالة عليها ، وذلك قوله سبحانه فى المتألبين[2] على خليفته فى أرضه ، الداعى إلى مندوبه وفرضه ، صلى الله عليه وسلم ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ومِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾[3] [الأحزاب : ١٠] .

وقوله ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِى المُؤْمِنُون وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب : ١١] .

وقوله فى تردد من ضعفت بصيرته حينئذ ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب:١٠] .

وقوله فى نجوم النفاق وجرأة أهله على إظهار ما كانوا يسترونه حين رأوا أن المؤمنين قد ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديدا ﴿وإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِيْنَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُوْلِهِ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب : ١٢] .

وقوله فى القاعدين عن نصرة الحق المخذلين من أراد نصره ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالقَائِلِيْنَ لإِخوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب :١٨] وقوله فيهم ﴿وإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِب لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وقوله فى المتسللين لواذاً ﴿وَيَسْتَئذِنْ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ النَّبِّى يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيْدُوْنَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ [الأحزاب :١٣] .

وقوله فى تجار أسواق الفتن الذين يتبعون كل ساع ، ويستجيبون لكل داع ﴿وَلَوْ دخلت عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُم سُئِلُوْا الفِتْنَةَ لأَتَوْهَا﴾ [الأحزاب:١٤] .

وقوله فى تعجيز الفرار عن مغالبة القدر ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُم الفَرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوْ القَتْلِ﴾ [الأحزاب :١٦] .

---

(١) أى حسن أخلاق العوام .

(٢) المتألبون : مفردها المتألب وهم المحرضون المعاندون .

(٣) انظر تفسير سورة الأحزاب فى الدر المنثور للسيوطى (٣٤٦/٥) .

والتي بعدها ، وهو قوله سبحانه ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوْءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب :١٧] .

فهذه جمل طوام العوام والامتحان بها ، ثم إن الله سبحانه دل من امتحن بها على ما أدب به رسوله ﷺ بقوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِىْ رَسُوْلِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب :٢١] .

ومما أدب الله به رسوله عليه السلام ، التأسى ، قال عز من قائل ﴿وَلَقَدْ كُذِبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِبُواْ وَأُوْذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام :٣٤] .

ثم عرف الله رسوله عليه السلام أن إضاعة التأسى وترك العمل به لا يجلب إليه حظا فقال ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُر عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِى نَفَقَاً فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِىْ السَمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيَة﴾ [الأنعام :٣٥] .

واعلم أن التأسى بهم مفترض عليه بقوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . قوله ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام :٩٠] فهذا أمر جزم.

وروى أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ الله أَدَّبَنِى فَأَحْسَنَ أَدَبِىْ»(١) .

فالتأسى مما أدب الله به رسوله بل مما افترضه عليه كما بيَّنا ، ومعنى التأسى عند الأئمة أن تنظر إلى أسى غيرك ، أى حزنه ، وأنه مثل أَسَاك ، أى مثل حزنك، فتصبر . والأسى : هو الحزن ، ولا يعجبنى هذا ، وهو عندى مأخوذ من قولهم : أسوت الجرح والجريح ، أى داويت ، والآسِى : هو الطبيب المداوى ، فكان معنى التأسى : التطبب والتداوى بالصبر ، والأسوة : اسم من هذا ، والتأسى : تَفَعُّلٌ من الأسوة ، ولو كان على ما ذهبوا إليه لكان معنى التأسى ، التحزن تقول : أسيت ، أى حزنت ، وتأسيت أى تحزنت .

---

(١) أورده المناوى فى الفيض (٢٢٤/١) عن ابن مسعود وقال : إسناده ضعيف ، وقال السخاوى : ضعيف ، وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٣١٨٩٥) وعزاه لابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود رضي الله عنه .

خبر نبوى فى التأسى

مما رويناه أن النبى ﷺ قال : «انْظُرُواْ إِلَى مَن أَسْفَلَ مِنْكُمْ ولاَ تَنْظُرُواْ إِلى مَنْ فَوْقَكُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلاَّ تَزْدَرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم»[1].

قال محمد عفا الله عنه : إن هذا الحديث لحسن الموقع مما نحن فيه ، ولا ينبغى أن يقصر لفظه عن إطلاق مفهومه وموجب عمومه ، والذى يوجب عمومه : أنه أمر لمن كان فى نعمة دقيقة بأن ينظر إلى من هو فى نعمة أدق منها ، وأمر لمن كان فى بلاء بأن ينظر إلى من هو أشد من بلائه ، فإنه دونه وأسفل منه فى حظ المعاناة المطلوبة ، وهذا المخفف عنه حظه أوفر وأعلى قدرا لنعمة منعم عليه ، ومحسن إليه بما يفوق ما أنعم به على غيره ، وذو البلاء منعم عليه بنقص بلائه عن بلاء غيره ومعافاته من الابتلاء بتلك الزيادة التى ابتلى بها غيره ، وإنما كان هذا الخبر بليغا فى باب التأسى ؛ لأنه ينقل مستعظم البلاء الذى نزل به إلى أن يستصغره بإضافته إلى ما ابتلى به غيره ، ويخصه على ما فضله به من حظ العافية التى فضل بها على غيره ، وهذه درجة أعلى من درجة التأسى المطلق لأن التأسى المطلق لا يفيد حضا على شكر ، ولا يصور النقمة المخففة فى صورة النعمة ، وإنما يثمر الصبر خاصة ، وهذا الحديث يثمر الصبر ثم الشكر .

أسجاع وأبيات حكمية فى التأسى

التأسى جنة البلاء ، وسنة النبلاء درج الاصطبار[2] ، كما أن الجزع درك التبار[3] ، وإنه ينبغى لذى البصيرة أن يرى النعم فى صورة العوارى المرتجعة[4] ، والودائع المنتزعة ، فمتى لم يفعل ذلك أعظم فقدها ، وجور المنعم إذا استردها ، كما ينبغى له الايذهل عن حظوظ جنسه منها ودولتهم فيها

---

(١) أخرجه الإمام مسلم : كتاب الزهد والرقائق (٩) عن أبى هريرة . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٦٤٢٤) وعزاه للبيهقى عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢) درج الاصطبار : مسالكه وطرقه .

(٣) الهلاك .

(٤) العوارى ، مفردها العارية : وهو ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده لك .

، فإذا زالت عنه وصارت إليهم لم ينكر منهم أخذهم أنصباءهم[1] وتقاضيهم حظوظهم ، وليتأس بصبرهم عند حوزه[2] لها دونهم فيصبر لدولتهم الخالفة ، كما صبروا لدولته السالفة ؛ لأن صدقة المتصدقين وإقراض المقرضين وضيافة المضيفين ، وما يلتحق بذلك من ضروب المواساة فى المال وفى القوة وفى الجاه إنما ندب إليه المواسون فيه ليستبقوا النعم بإعطاء الجنس حظوظهم منها ، وفى هذه الجملة الحكيمة لمن تدبرها قَنَعَان ، والله المستعان .

أنشد فى بعض الملوك لنفسه فى حال شديدة نزلت به :

نَحْنُ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ بَطْشاً وعِلْماً ... ولَنَا المحتد الأغر الأعز[3]
ولنا أَنْفُسٌ عوارِفُ بالدهـر ... تَأَسَّى حين الأَسَى يُستَعَزُّ[4]

وحضرت عنده فى يوم من أيام شِدَّته ، فأنشدنى لنفسه :

قَرَّبَنِى دَهْرِى فَلَمْ يَلْقَنِى ... أَطْمَعُ فى تَأْبِيدِ تَقْرِيبِهِ
ثُمَّ نَبَا عَنِّى فَلَمْ يَلْقَنِى ... أَجْزَعُ مِنْ إصْنَاتِ تعذيبه[5]

والحمد لله على حكمه

ثم قال لى : أجز ، فقلت : فقوتى منه وحولى به

وقال لى يوما وقد حادثته بما يبعثه على التأسى : أنشدنى فى ذلك شعرا ، فأنشدته للخنساء :

ألا يا صَخْرُ لا أنسَاكَ حتى ... أُفارِقَ عيشَتِى وأَزُورَ رَمْسِى[6]
ولَوْلاَ كَثْرَةُ الباكِينَ حَوْلِى ... عَلَى أَحْبَابِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِى
ومَا يَبْكُونَ مِثْلَ أخِى ولَكِن ... أُعَزِّى النفسَ عنه بالتَّأَسِّى

فقال لى : هذا أخلق من طيلسان بن حرب ، اسمع ، وأنشدنى لنفسه :

---

(١) الحصة من الشيء أى أنصبتهم .
(٢) أى عند حصوله عليها .
(٣) المحتد : الأصل والنسب .
(٤) عوارف ، مفردها عارفة : وهو العالم بالشيء .
(٥) نبا عَنِّى : أعرض عنى . إصنات تعذيبه : أى إحكام وشدة تعذيبه .
(٦) رمسى : قبرى .

نَفِيضُ كمـا يَفِيـضُ النِّيـلُ جُوداً ونُقْـدِمُ مِثْـلَ إقْـدَام الحُسَام[١]

وإنْ نَزَلَـتْ بِنَـا كُبْرُ الرَّزَايَـا تَأَسَّـيْنَا بِأَمْـلاَكٍ كِـرَام[٢]

روضة رائقة ، ورياضة فائقة

قيل لما عزم سابور بن هرمز[٣] على الدخول إلى بلاد الروم متنكرا متحسسا نهاه نصحاؤه وحذروه التغرير بنفسه فى أمر يمكنه أن يستنيب فيه فعصاهم .

وكان يقال : أشقى الناس وزراء الأحداث من الملوك ، وعشاق القينات[٤] من الشيوخ .

وكان يقال : إنما عسر صرف الأحداث عن غى الهوى إلى رشد الرأى لأمرين؛ أحدهما : قوة سلطان الشهوات عليهم ، والثانى : أن التجارب لم ترض عقولهم على مخالفة هواهم ، وذو الحنكة[٥] بخلاف ذلك .

ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله، وكان شيخا ذا دهاء وحزم وسداد رأى وحنكة ، وبصر بالديانات واللغات ، وتبحر فى العلوم وخبرة بالمكايد ، فسلم إليه سابور جميع ما يظن أن به إليه حاجة أو تدعوه إليه داعية ، وأمره أن ينحاز عنه فى قرب منه ومراعاة لجميع أحواله فى ليله ونهاره ، وتوجها معا نحو الشام[٦] ، فتزيا ذلك الوزير بزى الرهبان وتكلم بلسان الجلالقة[٧] ، وتحرف بصناعة الطب الجراحى ، وكان معه

---

(١) الحسام : السيف القاطع .

(٢) الرزايا : مفردها الرزيئة وهى المصيبة .

(٣) سابور بن هرمز : ملك فارسى لقب بذى الأكتاف وحمى الديانة المزدية واعتناقها . مفاتيح العلوم (٦٥) .

(٤) القينات ، مفردها قينة : وهى الأمة المغنية الجميلة .

(٥) أى الحكيم والخبير .

(٦) الشام : وقيل الشأم ، وسميت بذلك لكثرة قراها ، وتدانى بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((الشام صفوة الله من بلاده ..)) . الحديث . معجم البلدان (٦٩٤٦) .

(٧) الجلالقة : من ولد يافث بن نوح عليه السلام وهو الأصغر من ولد نوح ، وبلدهم جليقية، الروض المعطار (١٦٩) معجم البلدان (٣٢٠٥) .

الدهن الصينى الذى إذا دهنت به الجراحات برئت واندملت فى الحال .

قال محمد عفا الله عنه : قد رأيت جماعة ذكروا أنهم رأوا هذا الدهن المذكور وحدثنى بعضهم أنه امتحنه بأن شرح اللحم ودهنه منه فالتأم مكانه ، فكان ذلك الوزير فى مسيره نحو بلاد الروم وبعد ما دخلها ، يداوى الجرحى بأدوية يضيف إليها شيئا يسيرا من ذلك الدهن فتبرأ جراحهم بسرعة ، فإذا عنى بواحد من ذوى الأقدار داواه بذلك الدهن صرفا فيبرأ مكانه ولا يأخذ على المداواة أجرا ، فأنشر له فى البلاد ود وصيت بالعلم والزهد .

وكان يقال : من غرس العلم اجتنى النباهة ، ومن غرس الزهد اجتنى المحبة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة ، ومن غرس المداراة(١) اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقت(٢) ، ومن غرس الحرص اجتنى الذل ، ومن غرس الطمع اجتنى الخزى ، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد(٣) .

وكان يقال : الأمم على اختلاف أديانها وأزمانها وبلدانها متفقة على حمد أخلاق أربعة : العلم ، والزهد ، والإحسان والأمانة .

قيل : فانطلق سابور ووزيره منفردين إلا الوزير يراعى أحوال سابور أشد المراعاة ، فلم يزالا على ذلك حتى طوفا جميع الشام ، وتجاوزا الدروب وقصدا القسطنطينية(٤) ، فقدماها ، فذهب الوزير إلى البطرك ـ وتفسير هذا الاسم ، أبو الآباء ـ فاستأذن عليه فأذن له وسأله عما يريد فأخبره أنه هاجر من أرض الجلالقة ليتشرف بخدمته ويدخل فى أتباعه ، وأهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك ، فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته ، واختبره فوجده لبيباً فأعجبه غاية الإعجاب وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك ليصحبه بما يوافقه ويتفق عنده ويحسن موقعه منه .

---

(١) الحيلة والنفاق .

(٢) البغض والكراهية .

(٣) الحزن الشديد والهم .

(٤) القسطنطينية : مدينة عاصمة بيزنطة القديمة أو الدولة الرومانية الشرقية . بناها قسطنطين الأول وجعلها مقر حكمه . معجم البلدان (٩٦١٣) .

وكان يقال : إذا أردت صحبة رئيس ، فانظر ما يستميله ويتفق عنده من الآلات فإن كنت مطيقا للعمل بها فى طلب إقباله عليك وحظوتك عنده ، فاقدم عليه وإلا فَرُضْ نفسك على ذلك حتى تعلم أنها قد أطاقته وأحكمته فتقدم على بصيرة .

قيل : فلما تأمل وزير سابور أخلاق البطرك وجده مائلا إلى الفكاهات معجبا بنوادر الأخبار ، فأخذ الوزير فى إتحافه من ذلك بكل نادرة غريبة ، وملحة عجيبة، فلم تطل المدة به فى صحبته حتى حلا بعينه وقلبه ، وصار ألصق به من شعرات قصه(١) ، وجعل مع ذلك يعالج الجرحى ولا يأخذ على ذلك عوضا ، فعظم قدره فى الناس ، وومقته(٢) القلوب .

وكان يقال : إذا كانت القلوب مجبولة على مقة المحسنين كانت المحبة رقا، والأحرار يكرهون الاسترقاق ، فالحر على الحقيقة من فدى نفسه من رق المحسنين بمكافأتهم على إحسانهم جهده ، حتى إذا لم يستطع فليُرِقّ نفسه لهم معذورا ، وجعل الوزير يتعهد أحوال سابور فى كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة حشر إليها الناس على طبقاتهم وتهدد من تخلف عنها ، فأراد سابور حضورها ليطلع على هيئة قصر قيصر وسمته وذخائره ، فنهاه وزيره عن التغرير بنفسه فعصاه ، وتزيا بزى ظن أنه يستر به أمره ، ودخل دار قيصر مع من حضر ، وكان قيصر لما بلغه ما أيد الله به سابور من لطف الفطنة ، وعظم الهمة ، وشدة البأس فى حال صباه حذره حذرا شديدا ، فبعث إلى حضرته بمصور ماهر ، فحكى صورة سابور فى مجلسه وحال ركوبه ، وغير ذلك من ضروب الأحوال التى شاهده المصور عليها ، وقدم بتلك الصور على قيصر ، فأمر قيصر بأن تصور تلك الصور على فرشه وستوره(٣) ، وفى آلات أكله وشربه ، فصنع ذلك على ما أمر به ورسمه(٤).

ولما دخل سابور دار قيصر واستقر فى مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس، أتوا بالشراب فى كؤوس البللور والفضة والزجاج المحكم ، وكان فى

(١) القص : عظم الصدر ، المراد : أى قريب إلى قلبه ونفسه .

(٢) أحبته وتوددت إليه .

(٣) الستور ، مفردها الستر : ما يستر به المرء عند نومه .

(٤) أى كتبه .

المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم ذو فراسة صادقة ، فلما وقعت عينه على سابور أنكره، وجعل يتأمل شخصه ونظرته فرأى عليه مخايل الرياسة ، فطفق يستشفه ولا يصرف بصره عنه ، فأتى ذلك المتفرس الرومى بكأس فيها صورة سابور ، فتأملها فانطبعت فى نفسه إنها مثال لذلك الشخص الذى أنكره ، وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك القدح فى يده إمساكا طويلا ، ثم قال رافعا صوته : إن هذه الصورة التى فى هذا القدح تخبرنى أمرا عجيبا ، فقال له : ما الذى تخبرك هذه الصورة ؟ قال : تخبرنى أنَّ الذى هى مثال له معنا فى مجلسنا هذا ، ونظر إلى سابور وقد تغير حين سمع مقالته فحقق ما ظنه به وأعاد القول، فبلغ كلامه قيصر فأدناه وسأله ، فأخبره أن سابور معه فى مجلسه ، وأشار إليه فأمر قيصر بالقبض على سابور ، فقبض عليه ، وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل ، فقال ذلك المتفرس : لا تقبلوا عذره فهو سابور لا محالة ، فأمر قيصر بقتله ليرعبه بذلك ، فاعترف لهم بأنه سابور .

وكان يقال : قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار ، وطالما دلت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات .

وقيل : كما أن الأبصار مرائى تنطبع فيها المشاهدات إذا سلمت من صدأ الآفات ، فكذلك العقول مرائى تنطبع فيها بعض الغايات إذا سلمت من صدأ الشهوات .

وقيل : من الأدلة على مكاشفة الله القلوب ببعض الغيوب أن الإنسان قد يتوقع الشيء يكرهه أو يحبه ، ثم يكون ذلك الشيء الذى يتوقع على نحو ما توقع منه ، فقد يرى الإنسان فيحبه لغير إحسان فرط منه إليه أو يبغضه لغير إساءة جناها عليه ، ثم يكون منه الإحسان أو الإساءة .

قيل : ولما اعترف سابور بصدق ذلك المتفرس حبسه قيصر مكرما ، وأمر فعملت له من جلود البقر صورة بقرة كأعظم ما يكون من البقر ، وطبقت عليها الجلود سبع طبقات ، واتُّخذ لها باب من أعلاها فى ظهر الصورة يدخل إليها

ويخرج منه ، وجعلت فيها كوة[١] من أسفلها في موضع المبال ، وأمر سابور فجمعت يداه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة؛ ليمكنه معها تناول ما يصلحه من طعام وغيره ، وأدخل سابور في جوف تلك الصورة وهذا بعد أن حشر قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد الفرس ، ووكل بتلك الصورة التي سجن فيها سابور مائة رجل من ذوي الباس والقوة يحملونها دولا بينهم ، وجعل على كل خمسة منهم رئيسا يضبط أمرهم ، وصرف أمر جميعهم إلى المطران ـ ومعنى هذا اللقب صاحب البلد ، إلا أنها رئاسة دينية ، وهو خليفة البطرك ـ فإذا نزل العسكر أنزلت الصورة في متوسط العسكر وضربت عليها قبة تسترها ، وأطاف بها خمسون من الموكلين بها ورؤساؤهم معهم ، وضربت حولها عشر قباب مستديرة بها ، فكان في كل قبة خمسة ورئيسهم معهم ، وضربت للمطران قبة بمجاورة قبة سابور ، وضربت خارج القباب كلها خيمة يصنع فيها طعام الموكلين بقبة سابور على حسب أقدارهم ومراتبهم ، وسار قيصر محتفلا في جنوده وقد عزم على إخراب بلاد الفرس وتعفية[٢] معالم ملكهم لعلمه أن لا دافع يدفعه عنهم.

وكان يقال : الحزم التزام مداجاة[٣] العدو مادامت لدولته ريح إقبال ، كما أن العجز إضاعة الفرصة فيه إذا أدبرت دولته وركدت ريح إقباله .

وكان يقال : العاقل لا يكون في سلطان ملك اجتمعت فيه خصلتان : الانهماك في اللذات ، وإضاعة الفرص .

وكان يقال : تميز الملوك عن السوقة إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات ، وفضيلة ذات الملك بخمس خصال : رحمة تشمل رعيته ، ويقظة تحوطهم، وصولة[٤] تذب عنهم ، ولبابة[٥] يكيد بها الأعداء ، وحزامة ينتهز بها الفرص ، فهذه فضيلة الذات .

---

(١) خرق أو ثقب .

(٢) محو وإزالة .

(٣) مداراة ومداهنة .

(٤) سطوة وقدرة .

(٥) عقل وحكمة .

وأما فضيلة الأدوات فباتخاذ المبانى الوثيقة العلية ، والملابس الأنيقة السرية[1] والذخائر النفيسة السنية ، والمطاعم الشهية والمراكب البهية ، فهذه فضيلة تفضل بها هذه الأدوات على ما دونها من أجناسها ، فيكون للقصر فضل على غيره من القصور ، وللثوب فضل على غيره من الثياب ، وللذخيرة فضل على غيرها من الذخائر ، وللطعام فضل على غيره من الأطعمة ، وللدابة فضل على غيرها من الدواب ؛ فالفضيلة لهذه الأشياء لا لمالكها .

قيل : فلما سار قيصر[2] بجنوده ومعه سابور على الهيئة التى ذكرناها ، قال وزير سابور للبطرق : إن مما استفدت بخدمتك والقرب منك الرغبة فى صالح الأعمال وإنه لا عمل أنفس من تنفيس كربة عن مجهود[3] ، وجر نفع إلى مضطر، وقد علمت كفايتى فى معاناة الجرحى ، وإن نفسى لتنازعنى إلى صحبة الملك قيصر فى سفره هذا ، فلعل الله أن يستنقذ بى نفسا صالحة يترحم علىّ من أجلها ، ويقدس قلبى بخدمتها ويحفظنى لها ، فكره البطرك ذلك وقال له : قد علمت إنى لا أستطيع فراقك ساعة فكيف تطالبنى بالسفر البعيد عنى ، ما ظننت أنك تلقانى بما أكره ، وتسومنى ما يشق علىّ احتماله ، كما لم أكن أظن أنك تؤثر شيئا من الأشياء على القرب منى والتحبب إلى ، فقد أزلتنى عن حسن ظنى بك ، ولم يزل الوزير يضرع إلى البطرك ويتملقه[4] ويقرب له العود إلى أن سمح له بذلك ، فأذن له وزوده وكتب معه كتابا إلى المطران يخبره أنه قد بعث إليه سويداء قلبه وسواد بصره ، فلتحلله من نفسك بأعلى المراتب واستَضِيء برأيه فيما أشكل عليك ، فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله معه فى قبته ، وجعل زمام أمره ونهيه بيده ، وجعل الوزير يتنفق عند المطران بما يعجبه ويستميله بما يميل إليه ويطرفه كل ليلة

---

(١) أى الخالصة الجميلة .

(٢) قيصر : من كبار رجال الدولة والقواد فى روما . أعاد تنظيم الإدارة الرومانية . تآمرت عليه الطبقة الأرستقراطية فى مجلس الشيوخ فاغتيل . له تاريخ حرب الغال والحرب الأهلية. مفاتيح العلوم (٧٠) .

(٣) مكروب ذو محنة .

(٤) يتودّد ويتلطف إليه .

بأخبار ممتعة ، رافعا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس فى أحاديثه ما يحب أن يعلمه سابور من الأخبار ويفطنه له من الأسرار ، فكان سابور يجد لذلك أعظم راحة ، وكان الوزير قد أعد لتخليص سابور أنواعا من المكايد[1] رتبها وأسسها عندما قدم على المطران .

وكان يقال : من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط، وإن أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير لم يفلح ، وإنما كانت فطن الوزراء أثقب من فطن الملوك ؛ لأن الملوك يتفقهون أبدا فى سياسة من دونهم من الرعايا لا غير، والوزراء يتفقهون فى سياسة الملوك وسياسة الرعايا ، فهم أشبه شيء بالجوارح التى تصيد وتفترس ويصيدها أيضًا جوارح أشد منها ، فهى أعرف الجوارح بمكايد الاحتراس ومكايد الاكتساب .

وكان يقال : أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يجوز وقوعه ويمكن كونه عدةً ، فإذا وقع الأمر قابله بما كان أعده له ، وأسوأ الوزراء حالا من توكل على لطف فطنته وقوة حيلته ودربته وممارسته ، فترك الإعداد للأمور قبل نزولها ثقة بنفسه ، وإنما هو فى ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول وإعداده وترويته توكلا على فصاحة لسانه وقوة بديهته وحسن ارتجاله ؛ فيوشك أن يستولى عليه العى والحصر[2] فى بعض مقاماته ، وبمنزلة من ترك حمل السلاح توكلا على قوة بدنه وشجاعة قلبه ، فيوشك أن يظفر به عدوه فى بعض المواطن .

قيل : وكان من المكايد التى أعدها وزير سابور أنه امتنع من مواكلة المطران، وزعم أنه لا يريد أن يخلط بالطعام الذى زوده البطرك طعاما غيره ؛ لما يرجو من بركته وبركة الاغتذاء به ، فكان إذا حصر طعام المطران أخرج هو من ذلك الزاد فانفرد بالأكل منه ، فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس ، فأكثر فيها القتل والسبى ، وتغوير[3] المياه ، وقطع الشجر ، وإخراب القرى والحصون، وهو مع ذلك يواصل السير مبادرا ليستولى على

---

(١) المكايد ، مفردها مكيدة : وهو المكر والحيلة .

(٢) أى العجز عن الكلام .

(٣) أى إذهاب وتضييع الماء فى الأرض .

ملك سابور ، ويباغت[1] من بها من رؤساء الفرس قبل أن يملكوا عليهم رجلا ، ولم يكن للفرس هَمٌّ إلا الفرار بين يديه والاعتصام منه بالمعاقل ، فلم يزل قيصر على ذلك حتى بلغ مدينة سابور وقرارة ملكه وهى المسماة جنديسابور[2] فأحاط بها جنوده ، ونصب عليها المجانيق[3] ، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة فى دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها ، وكل هذا قد علمه سابور على التفصيل مما يعلمه إياه وزيره ويدسه فى أحاديثه من الإشارات والرموز والكنايات ، وكان سابور لم تُسمع منه كلمة منذ سجنه قيصر فى تلك الصورة .

فلما عرف سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته على أهل جندى سابور وقد ثلم الأسوار[4] بالمجانيق ، وأشرف على افتتاح المدينة ؛ عيل صبره[5] ، وساء ظنه بوزيره وجزع ويئس من النجاة مما هو فيه .

فلما جاء الموكل بطعامه قال له : إن هذه الجامعة قد نالت مِنِّى منالا عظيما وضعفت منها ، وسمعها وزير سابور ؛ فعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما قصده سابور .

فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له : لقد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة ، ولوددت أنى كنت حدثته للبطرك قبل سفرى عنه فقال له المطران : إنى راغب إليك أنْ تحدثنى به الليلة أيها الحكيم الراهب .

فقال الوزير : نعم وكرامة ، ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور

فقال : إنه كان عندنا بجليقية[6] فتى وفتاة فى نهاية الحسن والظرف ، اسم الفتى ما معناه : عين أهله ، واسم الفتاة ما معناه : سيدة النار ، وكانا زوجين

---

(١) يفاجىء .

(٢) جند يسابور : مدينة إيرانية فى إقليم خورستان بناءها سابور بن أردشير فنسبت إليه . وهى مدينة خصبة واسعة الخير بها النخل والزروع والمياه . معجم البلدان (٣٢٧٢) .

(٣) المجانيق ، مفردها منجنيق : وهى آلة حربية ترمى بها القذائف .

(٤) أى هلك وهدم .

(٥) أى نفذ صبره .

(٦) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس فى أقصاه من جهة الغرب ، معجم البلدان (٣٢٠٥) .

مؤتلفين متحابين لا يبتغى أحدهما بالآخر بدلاً ، وإنّ "عين أهله" جلس يوما مع أصحاب له يتحادثون فتذاكروا النساء إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع والظرف الرائع اسمها ما معناه : سيدة الذهب فوقع بقلب عين أهله ميل إليها، فسأل الواصف لها عن منزلها فذكر له أنها بقرية غير قرية عين أهله ، ففكر عين أهله فى أمرها وخامره حبها وطمحت نفسه إليها طموحا شديداً .

وكان يقال : العقل كالبعل ، والنفس كالزوجة له ، والجسم كالبيت لهما، فإذا كان سلطان العقل على النفس مبسوطا اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المرأة التى قهرها بعلها بمصالح نفسها وبيتها وولدها فصلحت الجملة ، وإذا كان السلطان للنفس على العقل كان سعى النفس فاسدا ونزاعاتها مذمومة كفعل المرأة التى قهرت بعلها .

قيل : فانطلق "عين أهله" إلى القرية التى تسكن بها سيدة الذهب ، وطلب منزلها حتى عرفه ، ولم يزل يتردد إليه حتى رآها فرأى منظرا عجيبا ولم تكن أحسن من امرأته . ولكنه كان يقال : من ضرورة النفس أن تحن إلى التنقل فى الأحوال إذا كانت نقلت بالتركيب إلى عالم الكون ، ثم تنتقل بالتفريق إلى عالم الفساد ، وما افتتح أمره واختتم بالنقلة ، فأليق الأحوال بتوسطه للنقلة ، ونازعت عين أهله نفسه إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذهب فلزم المعاودة إلى منزلها والتمتع بتأملها حتى فطن له بعلها ، وكان جليقيا غليظ الطبع ، قاسى القلب شديد البطش يسمى : الذئب ، فرصد عين أهله حتى مر به ، فلما رآه وثب عليه فقتل فرسه ، ومزق ثيابه ، وتعتعه(١) وعنف عليه ، واستعان بأصحاب له ، فاحتملوا عين أهله وأدخلوه إلى دار الذئب وربطوه إلى سارية فى بيت من بيوتها ، ووكل به الذئب عجوزا قطعاء اليد ، جدعاء الأنف(٢) ، عوراء العين ، شوهاء الحالة ، فلما جن الليل أوقدت تلك العجوز نارا بالقرب من عين أهله ، وجلست تصطلى(٣) ، فتذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والرفاهية والعز ، فزفر

---

(١) ضربه بعنف .

(٢) أى مقطوعة الأنف .

(٣) تستدفىء .

زفرة عالية ، فأقبلت عليه العجوز وقالت له : أيها الفتى : ما ذنبك الذى أوردك مورد الذلة والشدة ؟ .

فقال عين أهله : ما علمت أن لى ذنبا . فقالت العجوز : هكذا قال الفرس للخنزير فلم يصدقه الخنزير ، ثم باحثه عن أمره ؛ فظهر ما خفى منه وعلم صدق ظن الخنزير ، فقال عين أهله للعجوز : إن رأيت أن تحدثينى بذلك وكيف كان فإنك تحسنين إلى به .

فقالت العجوز : ذكروا أن فرسا كان لرجل من الشجعان فكان يكرمه ويحبه ويحسن القيام عليه ، ويعده لمهماته ولا يصبر عنه ساعة ، وكان يخرج له فى الغدوات إلى مرج[1] فيزيل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه[2] ، فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس فيرده ، وأنه خرج به يوماً إلى المرج ونزل عنه ، فلما استقرت قدمه على الأرض نفر الفرس وجمح ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه ، وغاب عن عينه عند غروب الشمس ، فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس ، ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع ، فرام[3] أن يرعى ، فمنعه اللجام ، ورام أن يتمرغ ، فمنعه السرج ، ورام أن يستقر على أحد جنبيه ، فمنعه من ذلك الركابان ، فبات بشر ليلة . ولما أصبح ذهب يبتغى فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه إلى ضفته الأخرى فإذا هو بعيد القعر فسبح فيه ، وكان حزامه ولببه[4] من جلد لم يبالغ فى دبغه ، فلما خرج من النهر أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا ، واشتد عليه ، فورم لبابه ومحزمه واشتد الضرر عليه إلى ما به من الجوع ، فلبث بذلك أياما إلى أن ضعف عن المشى ، فقام فمر به خنزير فهم بقتله ، ثم عطّفه عليه ما رأى به من الضعف ، فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه من إضرار اللجام واللبب والحزام به ، وسأله أن يصطنع عنده معروفا ويخلصه

---

(١) الأرض الواسعة كثيرة العشب .

(٢) حبله وزمامه .

(٣) أراد .

(٤) اللبب : ما يشد فى صدر الدابة .

مما ابتلى به ، فسأله الخنزير عن الذنب الذى استحق به تلك العقوبة ، فزعم الفرس أن لا ذنب له .

فقال له الخنزير : كلا ؛ بل أنت كاذب فى زعمك ، أو جاهل بجرمك ، فإن كنت يا فرس كاذبا فما ينبغى لى أن أنفس عنك خناقا ، ولا أن اصطنع عندك معروفا ولا أن أتخذك وليا ، ولا أن ألتمس عندك شكرا ، أو أطلب فيك أجرا .

وأنّه كان يقال : إذا رأيت نفس الكذاب قد تشبث بها عالم الفساد فكِلها إليه ، فإنه اللائق بها لفساد تركيبها ، والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب أنها مضرة به ، معرضة عن الحقيقة فى الحوادث ، ونزاعة إلى العدم المحض(١) ، فتتصور العدم وجودا ، والباطل حقا وتصور ذلك فى نفس المغتر بها إلى الراكن إلى قولها .

وكان يقال : احذر مقارنة ذوى الطباع المرذولة(٢) ؛ كيلا تسرق طباعك من طباعهم وأنت لا تشعر .

وكان يقال : أصعب ما يعانيه الإنسان ممارسة صاحب لا تتحصل منه حقيقة.

وكان يقال : لا تطمع فى استصلاح الرذل والحصول على مضافاته ، فإن طباعه أصدق إليه منك فلن يترك طباعه لك .

ثم قال الخنزير : وإن كنت يا فرس جاهلا بجرمك الذى استوجبت به هذه العقوبة فجهلك بذنبك أعظم منه ، فمن جهل ذنوبه أصر عليها ولم يُرج فلاحه .

وكان يقال : احذر الجاهل فإنه يجنى على نفسه ، ولست أحب إليه منها .

وكان يقال : ما شيء أشبه بالكذب من الجهل ، وذلك لأن الكذاب يتناسى الصورة والقضية المحسوستين ، ويتخيل الكذب الذى هو ضدهما حتى ينطبع ذلك فى عقله ويترك الصواب عمدا إلى غيره ، والجاهل يرى الأشياء على خلاف ما هى عليه ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا ، وإنما الفرق بين الجاهل والكاذب : أن الكاذب يأتى ما يعلم خطأه فيه ، والجاهل لا يعلم ذلك ،

---

(١) الفناء .

(٢) الخسيسة والدنيئة .

فهو على نفسه وعلى غيره أشد جناية من الكاذب .

فقال الفرس للخنزير : ينبغي لك ألا تزهد في اصطناع المعروف ، فقال الخنزير: إني لست بزاهد في ذلك ، ولكنه كان يقال : العاقل يتخير لمعروفه كما يتخير الباذر لحبوبه التي يبذر ما ذكا[1] من الأرض ، فحدثني يا فرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك لأعلم من أين دهيت ، فحدثه الفرس بجميع أمره وكيف كان عند فارسه ، وكيف فارقه وما لقي في طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير .

فقال له الخنزير : قد ظهر لي الآن أنك جاهل بجرمك وأن لك ذنوباً ستة ، أولها : خذلانك فارسك الذى أحسن إليك وأعدك للمهمات ، والثاني : كفرك لإحسانه ، والثالث : إضرارك به في طلبك ، والرابع : تعديك على ما ليس لك وهو السرج واللجام والخامس : إساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذى لست له أهلا ولا لك عليه مقدرة، والسادس : إصرارك على ذنبك وتماديك في غوايتك، فقد كنت متمكنا من العود إلى فارسك ، والاستقالة من فارط جهلك قبل أن يوهنك اللجام بالجوع.واللبب والحزام بالضنك[2] .

فقال الفرس للخنزير : أما إذ عرفتني ذنوبي وأيقظتني لما كنت ذاهلا عنه ، محجوبا بحجاب الجهل ، فانطلق الآن ودعني فإني مستحق لأضعاف ما أنا فيه.

فقال الخنزير : أما إذ عرفت وفطنت لهذا الغدر ، ولمت نفسك ، ووبختها واخترت لنفسك العقوبة على جهلها ، واستعملت الحكمة التي وعيتها ؛ فإنك حقيق بأن ينفس عنك ، وإنه قيل : إن الأب لوقا[3] كتب على باب بيته : إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف عند قدرها ، فمن كان بهذه الصفة ؛ فليدخل وإلا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة .

ثم إن الخنزير قطع عنان اللجام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس .

(١) أي ما جاد وحسن من الأرض .

(٢) الضيق والضعف .

(٣) لوقا : قديس إنجيلي . رفيق بولس الرسول في أسفاره . كان طبيباً كتب إنجيله نحو ٦٧م. وهذا مما يدعيه رهبان وأنصار المسيحية .

قال : ولما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز ، وفهم ما ضربت له من الأمثال أقبل على العجوز وقال لها : قد صدقت فيما نطقت وضربت لى مثلا كشف لى عن جلية أمرى[1] ، وأفدتنى حِكَما لا كفاء لها ، وأدبتنى فتأدبت ، ووعظتنى فاتعظت ، ثم حدثها حديثه ، ورغب إليها فى أن تمن عليه بالاصطناع وتطلقه كما فعل الخنزير بالفرس .

فقالت له العجوز : إنك غر[2] لا بصيرة لك بالأمور ، وإن الذى سألتنى لا يمكن فعله الآن ولعلى أن أجد لك فرجاً ومخرجاً مما أنت فيه ، فعليك بالصبر ، وأمسكت العجوز عن مخاطبته .

قال : فلما انتهى الوزير فى حديثه إلى هذه الغاية ، أقبل على المطران وقال له: إنى أحس فى نفسى فتوراً ، وفى رأسى صداعاً ولا يمكن الليلة إتمام الحديث ولعلى أن أكون فى الليلة القابلة نشيطاً إلى ذلك قديراً عليه ، فأكمل مسرتك بإكماله ، ونهض إلى مضجعه .

فجعل سابور يتصفح[3] حديث وزيره ، ويتأمل الأمثال التى وصفه بها ففهم أن الوزير كنى عنه بعين أهله ؛ لأنه ملك فارس . وكنى عن مملكته وإقليم بابل بسيدة النار ؛ لأن رعيته يعبدون النار ، وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب ، وكنى عن طموح نفس سابور إلى رؤية مملكة الروم بطموح نفس عين أهله إلى سيدة الذهب ، وكنى عن أخذ قيصر له بقبضة الذئب على عين أهله ، وقصد بما ضربه له من الأمثال الحكمية ؛ تأديبه على شرهه وتغريره بنفسه ومخالفة أصحابه ، وكنى عن نفسه وحاله وعجزه وحزنه وذله فى خدمة المطران وطلبه مرضاته وتملقه بالعجوز القطعاء الجدعاء العوراء المشوهة الخلق ، وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه فى ذلك الوقت ، وأنه ساع فى خلاصه ، فسكنت نفس سابور لما فهم ذلك وعاودته ثقته بوزيره واستروح ريح الفرج ، ولبث بذلك ليلته ووعدها الليلة القابلة .

---

(١) أى حقيقة أمرى .

(٢) الغر : من لا خبرة له .

(٣) يتأمل ويتدبر .

فلما تعشى المطران وأخذ مقعد المسامرة قال لوزير سابور : أيها الراهب الحكيم أخبرنى ما كان من أمر عين أهله وكيف كان عاقبة شدته ، وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا ؟ ، فإن نفسى إلى علم ذلك متطلعة وأراك الليلة صالح الحال .

فقال الوزير : سمعاً لقولك وطاعة لأمرك ، ثم أقبل عليه يحدثه فقال : إن عين أهله أقام على حالته موثقا طول ليلته تلك ، فلما أصبح دخل عليه الذئب فتهدده بالقتل وزاده إلى وثاقه قيدا ثقيلا وخرج عنه ، فقطع عين أهله نهاره ذلك بالأمانى، فلما جنه الليل قلق واستوحش وبكى وانتحب وجاءت العجوز فأضرمت نارا قريبا منه وجلست تصطلى .

ثم أقبلت على عين أهله فقالت له : تعز واصبر واذكر مصائب الناس فتأس بهم ولا تذهل عن النعمة العظمى فى حفظ نفسك ، فقال لها عين أهله : لقد صدق القائل هان على الطليق ما لقى الأسير ، فقالت له العجوز : أيها الفتى ، إن حداثة السن قصرت بك عن إدراك كثير من الحقائق ، أفتسمع حديثا لك فيه سلوة؟ قال : نعم فأنعمى على به .

فقالت العجوز : ذكروا أن تاجراً مكثراً كان له ابن ليس له غيره، وكان شديد المحبة له والشغف به فأتحفه بعض معارفه بغزال فرخ صغير ، فعلق به قلب الغلام ولد التاجر فكان لا يفارقه ، وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال حلْيا نفيسا، وارتبطوا له شاة ترضعه حتى اشتد الغزال وشدن نجم قرناه[1] ، قال الغلام لأهله : ما هذا الذى فى رأس الغزال ؟ قالوا: قرناه ، فأعجبه سوادهما وبريقهما ، فقيل للغلام : إنهما سيكبران ويطولان حتى يكون صفتهما كيت وكيت، فقال الغلام لأبيه : أحب أن أرى ظبيا له قرنان كبيران ، فأمر أبوه فصيد له ظبى ثنى السن[2] ، قد استكمل قوة ونموا ، فأعجب به الغلام وكرمه أهله وحلوه وآنسوه[3] فأنس ، وألف الغزال الظبى للمجانسة الطبيعية .

فقال الغزال للظبى : ما ظننت - قبل أن أراك - أن لى فى الأرض شكلا ،

---

(١) أى قوى واستغنى عن أمه .

(٢) أى نبتت أسنان مقدمة فمه دلالة على نموه .

(٣) استأنسوه .

ثم لما رأيتك وقع فى نفسى أن لى أشكالا سواك ، فقال له الظبى : نعم ، إن أشكالا لك كثيرة ، فقال له الغزال : أين هى ؟ فأخبره الظبى بتوحشها وانفرادها فى فلوات[١] الأرض فرارا من الناس ، وحدثه عن مراتعها ومواردها وازدواجها وتناسلها ، فارتاح الغزال لما سمع من الظبى ، وتمنى أن يراها فيكون معها ، فقال له الظبى : هذه أمنية لا خير لك فيها ، وأنت نشأت فى رفاهية العيش ، وأمنة لا تعرف غيرها ، ولو حصلت فيما تمنيت لندمت .

وإنه كان يقال : ثلاثة من لم ينزلها منزلتها ويرع لها حقها أسرعت مفارقته والتحول عن قربه ، وهى : الملوك ، والعلماء ، والنعم .

وكان يقال : الأمانى فى الشدة ارتياح ، وفى الرخاء جماح[٢] ، فلا ينبغى أن يأذن العاقل لنفسه من الأمانى إلا فى المقدار الذى يؤنس الوحشة وينفس الكربة ، فإن استيلاء الأمانى على النفوس ؛ كتآمر السفلة الذين يعيدون الرؤوس أعجازا[٣] والأعجاز رؤوساً ويسعون فى قلب الأعيان وتغيير صورة الصواب ، فقال الغزال للظبى : لابد لى من أشكالى ، فلما رأى الظبى أن الغزال غير منته وخاف عليه أن يقطع به قبل بلوغه ما تمناه ؛ لأنه غر لا يعرف التحرز من مكايد النفس لم يجد بدا من اتباعه والكون معه ليقضى حق حرمة ألفته إياه ، فرصدا حينا يمكن فيه الفرار وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء . فلما عاينها الغزال فرح ومرح وذهب يعدو ولا يثنيه شىء ، حتى سقط فى أخدود ضيق قد قطعه السيل فلبث فيه وانتظر أن يأتيه الظبى ليخلصه فلم يأته فبقى هنالك .

وأما ولد التاجر ، فإنه أصبح وعدم الغزال والظبى وجزع لفقدهما وأشفق أبوه عليه ، فاستدعى كل من يعانى الصيد بذلك البلد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الظبى والغزال ، ووعد من وجدهما وعدا مرغوبا فيه ، فانبثوا[٤] فى سهل الأرض وحزنها[٥] يطلبونهما ، وركب التاجر دابته ، وفرق أتباعه على أبواب

---

(١) الفلوات ، مفردها : فلاة وهى المساحة الواسعة من الأرض الفضاء .

(٢) انهزام وضعف .

(٣) الأعجاز ، مفردها : عجز وهو مؤخرة الشىء ، والمراد : قلب الأمور رأساً على عقب

(٤) الانبثاث : الانتشار والتفرق والمراد : جدوا فى طلبهم والبحث عنهم .

(٥) الحزن : ما غلظ من الأرض وصعب .

المدينة ينتظرون من يأتي من الصيادين ، وانطلق هو وعبدان من عبيده حتى أتوا الصحراء فرأى على بعد رجلا مكباً على شيء بين يديه فأسرع نحوه ، فإذا هو صياد قد أوثق ظبياً وهو يريد ذبحه ، فتأمله التاجر فإذا هو الظبى الذى يطلبه فتخلصه من يد الصياد وأمر عبيده ففتشاه ، فوجد معه الحلى الذى كان على الظبى ، فسأله : كيف ظفر بالظبى وأين وجده ؟ فقال : إنى بت فى الصحراء أتصيد فنصبت شركا وكمنت قريبا منه ، فلما أصبح جاء هذا الظبى ومعه غزال فمر الغزال يعدو ويمرح فى جهة غير جهة الشرك ، وجاء هذا الظبى حتى حصل فى الشرك فأخذته وقصدت به المدينة حياً لعلمى أنه إن رئى طولبت بما عليه من الزينة فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحماً ، فهذا خبرى .

فقال له التاجر : لقد جنى عليك شُحك الخيبة والحرمان ، فماذا عليك لو أطلقته فذهب وحصلت أنت على حليه وزينته . ولقد صدق القائل : لا يدخل الشر مدخلا إلا أعقبه المحرمة ، ولا يدخل البخل مدخلا إلا أعقبه الحسرة ، ألا ترى أن من حمله البخل والشره على أكل اللقمة التى عافتها نفسه كان متعرضا للمحرمة بتهوع[1] ما أكله والحسرة عليه عند مفارقته .

ثم إن التاجر بعث بالظبى إلى ولده مع أحد عبديه وقال للصياد : ارجع معى فأرنى الجهة التى رأيت الغزال سعى نحوها ، فرجع به إلى تلك الجهة وجعل الصياد يفتش ويتشوف على المواضع المرتفعة ومشى التاجر على رِسْله[2] ، فسمع تربيب الغزال ـ وهو صوته ـ فصاح به التاجر ، فلما سمع الغزال صوته عرفه، فصوت واتبع التاجر الصوت حتى قام عليه وإذا هو فى أخدود[3] أى شق فى الأرض ـ منتشبا فيه[4] ، فأخذه ونادى الصياد فوهب له دراهم وصرفه ، ورجع التاجر بالغزال إلى ولده وكملت مسرة الغلام ، وجعل الغزال يتجنب الظبى إذا رآه ولا يألفه كما كان ، وإذا حصل معه فى موضع نفر منه أشد النفار، فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الغزال والظبى على حال ألفة وسكون ؛ فلم يقدروا على ذلك فبينما الغزال

---

(١) تقيىء من غير تكلف .

(٢) أى على مهلٍ ورفقٍ .

(٣) حفرة مستطيلة .

(٤) متعلقا .

يوما نائما فى بيت ، دخل عليه الظبى فعاتبه على نفاره منه وطول هجرته لـه ، فقال له الغزال : أنسيت غدرك بى أحوج ما أكون إلى عونك ؟ ، فقال له الظبـى : إنى لم أغدر ولم أخن ولكن عدم رسوخك فـى علـم التجربـة أوقعك فـى تهمـة البرىء ، وإنى لم أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه إلا مضطـرا إلـى التـأخر عنك عاجزا عن المبادرة إليك ، وقص عليه قصته وأنه حصل فى شرك الصياد ، فعلم الغزال عذره وعاد إلى تآلفه .

قال : فلما سمع عين أهلـه حديث العجـوز ، وفهـم مـا أرادت بـه مـن ذكـر عجزها عن تخليصـه أمسك عن خطابها .

قيل : فلما انتهى وزير سـابور مـن حديثـه إلـى هذا الحـد سـكت ، فقـال لـه المطران: أيها الحكيم الراهب : ما هذا السكوت ، لعلك تريد أن تؤخـر إخبـارى بما كان من عاقبة عين أهله ، وما لقى من الذئب ، وما صنعته معه العجوز .

فقال له الوزير : إنى لعازم على ذلك لفتـور أجده فـى أعضـائى ، فقـال لـه المطران : لا تفعل فإن ذلك يسوءنى ويشق علـى ، فاحمل لى علـى نفسـك الليلـة أيها الحكيم ، فإنى راغب فى تأنيسك ، معجب بأحـاديثك ، فقـال الوزيـر : أفعـل ذلك طلبا لمرضـاتك ، ولـو علمـت أيهـا المطـران مـا ادخـرت لـك مـن عجـائب الأخبار وغرائب الأسمار لعجبت من ذلك أشد العجب ، ثم اندفع يحدثه ، فقال : إن عين أهله لما سمع حديث العجوز وفهم ما أرادته أمسك عنها وبات ليلته تلـك بأسوأ حال ، ولما أصبح دخـل عليـه الذئـب فنـال منـه ، وتعتعـه وعنفـه وتهدده بالقتل وزاده قيدا إلى قيده ، وعرفه أن لا ناصر له عليه ولا مخلص له مـن يده وخرج عنه ؛ فجعل يعلل نفسه نهاره ويمنيها الفرج ، فلما أقبل الليـل اسـتوحش واحتوشته الأفكار المريضة ، وانتظر أن تجلس إليه العجوز أو تحادثه فلم تفعـل ، وجعلت العجوز تكثر الدخول إلى البيت الذى فيه عيـن أهلـه ولا تسـتقر فيـه ؛ فساء ظن عين أهله وأيقن بالهلكة وما شك أن الذئب يقتله تلك الليلة ، فأقبل على البكاء حتى ذهب صدر من الليل ، ثم قال للعجوز : ما لك لم تؤنسينى هذه الليلة بحديثك ولا جلست إلى ؟ ، فجلست إليه وقـالت لـه : أمـا كـان لـك فـى رؤيتـى قطعاء جدعاء مشوهة عوراء سيئة الحال ما يحملك على التأسى والتسلى وحمـد الله وشكره على سلامة نفسك ومعافاتك من بلاء هو أعظم من بلائك حتى قلـت : هان على الطليق ما لقى الأسير؟ ، ولو اعتبرت باطن حالى بما ظهر لك منها

لعلمت أن أسرى أشد من أسرك فاستمع إلى أحدثك حديثى .

اعلم أيها الفتى أنى كنت زوجة لبعض الفرسان ، وكان بى محسنا وبى رفيقا ولى محبا ، فكنت معه فى أرغد عيش ، وأهناه فلبثت بذلك مدة طويلة وولدت له أولادا ذكورا وإناثا ، فكبروا فى رفاهية ونعمة ؛ فغضب الملك على زوجى لأمر كان منه فقتله وقتل ذكور أولادى ، وباعنى أنا وبناتى مفترقات ، فاشترانى هذا الفارس الذى عدا عليك واحتملنى إلى هذه القرية ، وأساء إلى وكلفنى من العمل ما لا طاقة لى به ، وأكثر معاقبتى على غير ذنب لما طبع عليه من القسوة والفظاظة[1] ، فسألته مراراً أن يرفق بى ، واستعنت عليه بإخوانه ومن يكرم عليه لكى يخفف عنى أو يبيعنى ، فلم يزده السؤال إلا قسوة على وإضراراً بىّ ، فلبثت بذلك سبع سنين ، ثم فررت منه فتبعنى فأدركنى فجدع أنفى ، ثم عاود قسوته على وإضراره بى وعاودت مسألته والاستشفاع إليه وهو مقيم على سوء رأيه فى، فمكثت بذلك سبع سنين أخرى ، ثم فررت منه فظفر بى ففقأ عينى ، ثم عاود عنفى ، فمكثت سبع سنين أخري ، ثم فررت منه فأدركنى فقطع يدى ، وقال لى: إنما بقى لى من أعضائك التى أنتفع بها عينك ويدك ، فإن فررت بعد هذا قطعت رجليك معا وأبقيتك ، أنتفع بعينك فى الحراسة وبيدك فى العمل ، وأقسم على ذلك بغليظ الأيمان وعاود عنفى ومضرتى ، وقد عزمت على أن أخلصك الليلة وأقتل نفسى بيدى طلباً للراحة مما أنا فيه ، ولهذا رأيتنى أكثر الدخول إليك والخروج عنك ، و إنما ذلك لحيرتى وجزعى من الموت وقد طابت نفسى على الموت ، ثم إنها فتحت قيود عين أهله ، وقطعت وثاقه وتناولت سكيناً، فقال لها عين أهله : ما تصنعين به ؟ ، قالت أقتل نفسى ، فقال لها عين أهله : لئن تركتك تقتلين نفسك فقد اشتركت فى دمك ، وانتزع السكين من يدها وقال لها: اذهبى معى لكى ننجو معا أو نعطب معا ، فقالت له : إن كبر سنى وضعف حالى ليمنعانى من اتباعك والهرب معك ، فجزاها عين أهله خيراً بما صنعت واتخذها أما يسمع لها ويطيع ، فهذا ما بلغنى من ذلك ، فقال عين أهله : إن الليل متسع والموضع الذى نأمن فيه إذا وصلنا إليه قريب وبى قوة على حملك ، فقالت العجوز: أما إذا عزمت

---

(١) الفظ ، جمعها أفظاظ : وهو الغليظ السيء الخلق الخشن الكلام .

على هذا فإنى لا أحوجك إلى حملى مادامت بى مسكة[1]، وخرجا معا ، فلم ينقض الليل حتى بلغا إلى حيث أمنا .

فقال المطران : ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ، ولقد وددت أن لا أفارقك أبدا وإن سفرى هذا يطول لتطول متعتى بك ويعظم حظى من أنسك ، ولقد استعذبت مفارقة الأهل والوطن لقربك ، ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه .

وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ، ففهم أن الغزال مثل لسابور وأن الظبى مَثَلٌ للوزير ، وأن خروج الظبى مع الغزال إلى الصحراء وحصول الغزال على الأخدود مثل لصحبة سابور وزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر، وأن نفار الغزال عن الظبى مثل لسابور .

وظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه ، وعرف أن الوزير قد عزم على تخليصه والخروج به إلى المدينة ليلاً ، وأن المدينة قريبة منه وأنه يحمله إن عجز عن المشى ، فأيقن سابور بقرب الفرج .

ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التى يطبخ فيها طعام المطران والموكلين بحفظ سابور على حال خلوة ، فألقى فى جميع الأطعمة مرقداً[2] قوى الفعل ، ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به عادته ، فلم يكن إلا ساعة حتى استحوذ المرقد على جميعهم فانجدلوا[3] فى مواضعهم صرعى على مراصدهم ومضاجعهم ، وبادر الوزير ففتح باب الصورة عن سابور ، واستخرجه وأزال الجامعة من عنقه ويديه ، وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر ، وقصد به جندى سابور ، وهى مدينة ملكه ، فانتهيا معا إلى سورها ، فصرخ بهم الموكلون بحراسة السور فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وعرفهم بنفسه ، وأعلمهم بسلامة ملكهم ، فابتدروا وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها ، وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح ، وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم فإذا ضرب الروم

---

(١) ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب .

(٢) دواء يرقد شاربه كالأفيون أى مخدر .

(٣) أى وقعوا على الأرض .

نواقيسهم[١] الضرب الأول؛ خرجوا من المدينة واقتربوا من عسكر الروم وقاموا على تعبئة وتأهب ، حتى إذا ضربت النواقيس الضرب الثانى حملوا بأجمعهم كل فرقة على من يليها فامتثلوا أمرهم ، وانتخبوا لسابور كتيبة عظيمة فيها أشجع أساورته وقام معهم فيما يلى الجهة التى فيها أخبية قيصر .

فلما ضربت النواقيس المرة الثانية حملوا من كل جهة ، وقصد سابور أخبية[٢] قيصر ولم يكن الروم متأهبين ؛ لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وأنهم قد بنوا أبواب مدينتهم ، فما شعروا حتى دهمتهم الفرس وأخذ سابور قيصر أسيراً ، وغنم جميع عسكره واحتوى على خزائنه ولم ينج من جنوده إلا الشريد[٣] .

وعاد سابور إلى قرار ملكه ، فقسم الغنائم بين أهل عسكره ، وأفاض الصلات على جميع من فى مدينته بقدر أحوالهم ، وأحسن إلى حفظة ملكه وشرفهم وفوض جميع أمره إلى وزيره الذى تخلصه ، ثم أحضر قيصر فأكرمه ولاطفه وقال له : إنى مبق عليك كما أبقيتنى ، وغير مجازيك بتضييق محبسى ولكنى آخذتك بإصلاح جميع ما أفسدت من جميع ممالكى ، فتبنى ما هدمته، وتغرس مكان كل نخلة قطعتها من بلادى زيتونة ، وتطلق كل من فى مملكتك من أسارى الفرس ، فضمن له قيصر ذلك كله ووفى له به ، ولما انتهى فى الإصلاح إلى بناء ما انثلم[٤] من سور مدينة جندى سابور . قال سابور لقيصر: إنما بنيته من تراب بلادك ، فأمر قيصر رعيته من الروم بحمل التراب من بلادهم إلى جندى سابور ، فرقع به ما انثلم من سورها ، ولما تم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن إليه وأطلقه إلى دار مملكته بعد أن قال له : خذ أهبتك واستعد عدتك ، فإنى غاز أرضك عما قريب .

---

(١) النواقيس ، مفردها ناقوس : وهو الجرس والصوت الذى يضرب فى الحرب

(٢) الأخبية : مفرد خباء وهو كساء من الأبنية يكون من وبر وصوف وشعر والمراد مكان تجمع الجنود .

(٣) الذى فارق جمعهم وشملهم .

(٤) ما هدم وكسر . والمراد أنه أصلح مافى السور من خلل .

قال محمد عفا الله عنه : قد بلغت بهذه السلوانة الغاية التى يحتملها هذا الكتاب، فالحمد لله على ما يسر من ذلك .

السلوانة الثالثة

سلوانة الصبر

وهو ثمرة التأسى ، قال الله ربنا تقدس اسمه مخاطبا صفيه المكين لديه ، ونبيه العزيز عليه ﴿واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِىْ ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُوْنَ﴾ [النحل :١٢٧] ، وهذا لما تألب المبطلون عليه ، وقصدوا بالمكر والمكروه إليه ، كما أخبره الله سبحانه بقوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِيُثْبِتُوْكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوْكَ﴾ [الأنفال :٣٠] .

وكان رؤساء قريش اجتمعوا فى دار الندوة(١) ليتشاوروا فى أمر النبىﷺ، وأتاهم إبليس فى صفة شيخ أعرابى فأرادوا إخراجه ، فقال لهم : إنى من أهل نجد(٢) ولا عين عليكم منِّى ، وبلغنى ما اجتمعتم له ، ولعلكم لا تعدمون من محضرى خيرا ، فأخذوا فى تشاورهم .

فقال عتبة : أرى أن تخرجوه من بين أظهركم ، فإن ظفر كان ظفره حظا ، وإن قتل كنتم قد كفيتم أمر دمه .

فقال إبليس: ما هذا رأى ، أما سمعتم حلاوة منطقه وأخذه بالقلوب؟ ، فلا تأمنوا أن يقع فى حى من أحياء العرب فيفسد أهواءهم ويسير بهم إليكم حتى يفرق جماعتكم.

فقال آخر منهم : أرى أن يوثق ويحبس حتى يأتيه أجله وهو فى حبسه .

فقال إبليس : ليس هذا برأى ، أما علمتم أن له أهل بيت وأتباعا لا يرضون منكم بهذا فيقع الحرب بينكم ، ويهن أمركم ، ثم قد تكون الدائرة عليكم ؟

فقال أبو جهل(٣) : نرى أن نأخذ من كل قبيلة من قبائل قريش شاباً جلداً ،

---

(١) دار الندوة : بمكة أحدثها قصى بن كلاب بن مرة لما تملك مكة ، وهى دار كانوا يجتمعون فيها للمشاورة ، وجعلها بعد وفاته لابنه عبد الدار بن قصى . ولفظه مأخوذ من لفظ الندى والنادى والمنتدة ، وهو مجلس القوم الذين يندون حوله أى يذهبون قريباً منه ثم يرجعون . البداية والنهاية (١/١٧٩) معجم البلدان (٤٥٧٩) .

(٢) نجد : هو اسم للأرض العريضة التى أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق و الشام ، وحد نجد أسافل الحجاز كما تدور الجبال معها إلى جبال المدينة . معجم البلدان (١١٩٢٤) .

(٣) أبو جهل ، هو أبو الحكم عمرو بن هشام ، كان زعيم بنى مخزوم من قريش ، وكان من أكبر

ويعطى كل واحد منهم سيفا ويأتونه فى مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يقدر أهله أن يطلبوا بدمه جميع القبائل إذا افترق دمه فيها .

فقال إبليس : لقد أصاب الرأى ، فتفرقوا على رأى أبى جهل فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله عليه السلام يعرفه مكرهم ويأمره بالهجرة إلى طيبة[1] .

وجاء الذين تخيروهم من القبائل للفتك برسول الله ﷺ إلى منزله من أول الليل ، فأمر النبى ﷺ علياً[2] رضي الله عنه أن يلبس برده الأخضر وينام على فراشه، وأعلمه أن لا يصل إليه من قريش مكروه ، فالتحف على بردة النبى ﷺ ونام على فراشه ، وخرج النبى رضي الله عنه من بيته والقوم علي بابه ، فقرأ أوائل سورة يس والقرآن الحكيم ، وأخذ كفا من تراب وجعل يذريه على رؤس القوم وهم لا يرونه .

وانصرف النبى ﷺ متوجها نحو الغار ، وجعل المشركون ينظرون إلى عليٌ فى مضجع رسول الله ﷺ وعليه برده الأخضر فيقولون هذا محمد نائماً ولا يطيقون الدخول حتى أصبحوا ، وقام عليٌ رضي الله عنه ، فنظروا إليه فأتوه وقالوا له : أين محمد ؟ فقال : لا أدرى أمرتموه بالخروج فخرج ، فحبسوه فى المسجد ساعة ثم تركوه رضى الله عنه[3] .

خبر نبوى فى الصبر

مما رويناه ، أن النبى ﷺ قال : «**العِلْمُ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ ، والحِلْمُ وَزِيْرُهُ ، وَالعَقْلُ دَلِيْلُهُ ، وَالْعَمَلُ قَائِدُهُ ، وَالرِّفْقُ وَالِدُهُ ، وَالْبِرُّ أَخُوْهُ ، وَالصَّبْرُ أَمِيْرُ**

أعداء النبى ﷺ ورسالته ، وقتل فى معركة بدر سنة (٢هـ) البداية والنهاية (٣/٣٠) .

(١) طيبة : اسم لمدينة رسول الله ﷺ . معجم البلدان (٨٠٢٨) .

(٢) علىبن أبى طالب : أبو الحسن الهاشمى ، أمير المؤمنين ، ابن عم رسول الله ﷺ . وعن ابن عباس قال : لعليّ أربع خصال ليست لأحد غيره : هو أول عربى وعجمى صلى مع رسول الله ﷺ ، وهو الذى كان لواؤه معه فى كل زحف ، وهو الذى صبر معه حين فرَّ عنه غيره ، وهو الذى غسله وأدخله قبره . وكان زوج بنت رسول الله ﷺ فاطمة رضى الله عنها . ومناقبه وفضائله رضي الله عنه تطول . الإصابة (٥٧٠٤) .

(٣) وردت القصة كاملة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٩٢) .

جُنُوْدِهِ»[١] . فناهيك بشرف خصلة تتأمر على هذه الخصال ، وليس المراد تفضيل الصبر على العقل والعلم وما ذكر من الخصال معهما ، ولكن المراد : أن بالصبر يكون الثبات على هذه الخصال لمن اتصف بها ؛ لأن معنى الصبر الثبات والحبس والإمساك ، فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يتصف بالصبر عليه والملازمة له كان عند مزايلته كمن لم يتصف به ، فالصبر لهذه الخصال الشريفة ضابط ضبط الأمير جنوده عن مزايلة مراكزها والإخلال بما نصب لها من دفاع وانتفاع .

منثور ومنظوم من الحكم فى الصبر

روى أن عليا ﷺ قال : الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لاَ تَكْبُو[٢] .

وَقِيْلَ : إِنَّ مِمَّا كُتِبَ فِيْ الصَّحِيْفَةِ الصَّفْرَاءِ الْمُعَلَّقَةِ فِيْ أَعْظَمِ هَيَاكِلِ الفُرْسِ : كما أن الحديد يعشق المغناطيس، فكذلك الظفر يعشق الصبر ، فاصبر تظفر .

اعلم رحمك الله : أن ظل الصبر ظليل ، ومضله ذليل ، وأن الصبر درج يفضى بمن عرج إلى الفرج ، وأن أقل فوائد الصبر على البلية أن الصبر عليها ينغص لذة عدوه المتشفى الشامت به .

والصبر صبران: صبر العامة ، وهو عمل أرواح ، وقد أحكم هذا المعنى حبيب ابن أوس[٣] فقال :

ولباسُ سَرْدِهِ الصَّبْرِ مُدَرَّعٌ بِهِ ... فى الحادِثِ الجَلّ أدراعَ اللامى
والصَّبرُ بالأرواحِ يُعْلَمُ فَضْلُهُ ... صَبْرُ الملوكِ ولَيْسَ بالأجْسَامِ

قوله : ادراع اللامى : أى الدرع ، والدرع : لامةٌ ، وجمعها لامٌ .

---

(١) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٦٦٣) (٤٣٥٥٧) وعزاه للبيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن مرسلاً .

(٢) أى جواد لا يتعثر ولا يتكسح .

(٣) حبيب بن أوس : هو ابن الحارث بن قيس الطائى شاعر العصر أبو تمام ، من حوران ، من قرية جاسم ، أسلم وكان نصرانياً مدح الخلفاء والكبراء وشعره فى الذروة ، وكان أسمر طوالاً ، فصيحاً ، عذب العبارة مع تمتمة قليلة . ولد فى أيام الرشيد ، وقد كان البحترى يرفع من أبى تمام . ويقدمه على نفسه ، وديوانه كبير سائر . مات سنة (٢٣٢هـ) وله كتاب (مخول الشعراء) . وقيل : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب . سير أعلام النبلاء (١٨٤٧) والبداية والنهاية (١٥٣/٦) .

وقال حبيب أيضًا فأحسن :

وإذا رَأَيْتَ أَسَى امْرِىءٍ أو صَبْرَه ... يـومًا فقَدْ أَبْصَرْتَ صورةَ رَأْيِـهِ

وقال نهشل بن جزء :

ويَوْمٍ كَأَنَّ المُصْطَلِين بِحَـــرِّهِ ... وإنْ لَمْ تَكُنَ نَارٌ قِيامٌ عَلَى الجَمْرِ

صَبَرْنَـــا لَهـــا حَتَّـــى تَفُـــوح وإنَّمَـــا ... تُفَـرِّجُ أَيَّـامُ الكَرِيـهَةِ بالصَّبْـرِ

قوله تفوح : أى تخبو .

وقلت فى ذلك :

على قَدْرِ فَضْـلِ المرءِ تَـأْتِي خطُوبُـه ... ويُعْرَفُ عِنْدَ الصَّبْرِ فِيمَا يُصِيبُهُ

ومَـنْ قَـلَّ ممـا يتقيـــهِ اصطبارُهُ ... فقـد قَـلَّ مِمَّـا يَرْتَجِيـــهِ نَصِيبُـهُ

وقال آخر :

الصـــبرُ أَوْلَـى بوقَـار الفَتَـــى ... مِـنْ قَلَـقٍ يَهْتِـكُ سِـتْرَ الوَقَـــارْ

مَـنْ لَزِمَ الصَّبْر عَلَى حَالِـــهِ ... كَـــانَ عَلَـى أَيَّامِـهِ بالخِيَـــارْ

وقال عمرو ذو الكلب :

ومَقْعَدِ كُرْبَـةٍ قَـدْ كُنْـتُ مِنْـــهُ ... مَكَـان الإصْبَعَيـنِ مِنَ القَبَـــالِ[(١)]

صَبَرْتُ لَهـا وكُنْـتُ أَخَـا حِفَــاظٍ ... إِذَا خَـامَ اللِّئَـــامُ عنِ الـنِّزَالِ[(٢)]

فَهَـــذَا والمَنِيَّـــــةَ مِـــنْ وَرَائِــــى ... سَتَطْـرُقُنِـى بهَـا إحْدَى اللَّيَالِـى

قال محمد عفا الله عنه : هذا أنموذج من القول فى الصبر على الجملة ، وهو يتنوع أنواعا ، والنوع اللائق بكتابنا هذا منها : هو صبر الملوك ، وصبر الملوك عبارة عن ثلاث قوى : القوة الأولى : قوة الحلم ، وثمرتها العفو ، القوة الثانية : الكلاءة[(٣)] والحفظ ، وثمرتها عمادة المملكة ، والقوة الثالثة : قوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات ، وأما ثمرتها فى حماة المملكة من المقاتل ،

---

(١) القبال : من الفعال زمامها .

(٢) خام : جَبُنَ ونَكَصَ .

(٣) الكلاءة : الاحتراس والحفظ .

الإقدام فى المعارك ، ولا يراد من الملك الإقدام فى المكافحة ، فإن ذلك من الملوك تهور وطيش وتغرير، وإنما شجاعة الملك ثباته حتى يكون قطبا للمحاربين ، ومعقلا للمنهزمين ، وهذا مادام بحضرته من يثق ندبه عنه ودفاعه دونه وحمايته له .

فلقد ذكرت الفرس : أن فيلا اغتلم[١] ، أى هام شبقا[٢] ، فدخل قصر كسرى آنوشروان[٣] ، والفيل إذا اغتلم أنكر سواسه ولم يثبت له شيء إلا أتى عليه ، قالوا : وإن ذلك الفيل قصد مجلسا كان فيه كسرى ومعه جماعة من كفاة أصحابه؛ فلما رأى الذين مع كسرى أن الفيل قد قصدهم فروا من المجلس وثبت كسرى على سريره وثبت معه رجل من أساورته كان مكينا عنده يثق بثباته ، فقام ذلك الأسوار بين يدى سرير كسرى وبيده طبرزين وقصده الفيل فثبت له حتى غشيه فضربه بالطبرزين[٤] على فنطسته[٥] ، فكر الفيل راجعا من حيث جاء ، وقد نالت منه الضربة منالا شديدا ، وكسرى فى هذا كله لم يتخلخل عن مجلسه ولا تغيرت هيئته ولا فارقته أبهته .

فهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملك ، فإذا لم يكن بحضرة الملك من يثق بدفعه عنه ، حَسُنَ حينئذ منه أن يذب عن نفسه ، إما بالإقدام على العدو إن غلب على ظنه الامتناع منهم بالإقدام عليهم ، أو بانهزامه إن أتاه مالا قبل له به ، وأشفق من عطب رعيته بهلكه .

كما حكى أن موسى الهادى[٦] كان يوماً فى بستان ومعه أهل بيته وبطانته وهو راكب على حمار وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلا من الخوارج جيء به أسيراً ، وكان الهادى حريصاً على الظفر به فأمر بإدخاله

---

(١) ثار فى شهوة .

(٢) الشبق : شدة الرغبة والشهوة .

(٣) كسرى أنوشروان : ملك من أسرة الساسانيين ، حكم فارس وله العديد من الإصلاحات ، اشتهر بعد له وبثرائه وفخامة قصوره حتى ضربت به العرب المثل فى الثراء ، له العديد من الانتصارات على الروم واستولى على اليمن . البداية والنهاية (١٦٧/٢) .

(٤) الطبرزين : آلة شبيهة بالفأس .

(٥) أى على أنفه (خرطومه) .

(٦) موسى الهادى : الخليفة العباسى ابن المهدى وهو الخليفة العباسى الرابع، وهو أخو الخليفة الرشيد . توفى عام (١٧٠هـ) . البداية والنهاية (١٥٣/١٠) .

بين رجلين قد أمسكا بيديه ، فلما رأى الخارجى الهادى جذب يديه من الرجلين اللذين كانا يمسكانه واخترط سيف[1] أحدهما ووثب نحو الهادى ، ولما رأى ذلك من كان حول الهادى من أهله وخاصته ؛ فروا جميعا وبقى الهادى وحده ، فثبت على حماره بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف قال الهادى: اضرب عنقه ياغلام ، فالتفت الخارجى حين سمع ذلك ووثب الهادى عن سرجه فإذا هو على الخارجى ، وسقط الخارجى تحته فقبض الهادى على يده ، وانتزع منه السيف فذبحه به ، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره ، وتراجع إليه خاصته وأهله يتسللون وقد ملئوا منه رعباً وحياءً ، فما خاطبهم فى ذلك بحرف ، ولم يكن بعد ذلك يفارقه سيف ولا يركب إلا الخيل .

وقد جلا عليك هذا الخبر ما أيد الله به موسى الهادى من ثبات الجأش[2] ، وإصابة الرأى ، وشدة الكيد ، وشجاعة القلب ، وقوة البدن رحمة الله عليه .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : وصف لكسرى أنوشروان أرض من التخوم[3] الهندية تتاخم أقليم بابل فذكرت له بحسن المنظر وطيب الهواء والماء ، وكثرة الإتاوة ، وزكاء الغلات، وكثرة العمائر ، وحصانة المعاقل . ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم[4] وبلادة[5] الفهوم وشجاعة القلوب ، وقوة الأبدان ، والصبر على العمارة ولزوم الطاعة ولين المقادة ، فشرهت نفس كسرى إلى تملك تلك الأرض والتكثر بأهلها.

وكان يقال : الشره أعرق الحصائل[6] فى اللؤم ، فالحرص أبوه الذى يولده، والبغى ابنه الذى يلده ، والطمع شقيقه والذل رفيقه .

وكان يقال : من شَرِهَ وقع فيما كره .

(١) أى استل السيف .
(٢) أى ثبات النفس .
(٣) التخوم ، مفردها تخم : وهى الحدود .
(٤) الجسوم ، مفردها الجسم : وهى الأبدان .
(٥) أى عجز الرأى وضعف الهمة .
(٦) الحصائل ، مفردها حصيلة : وهى ما حُصّل وجمع .

وكان يقال : الشره شدة ، ينتجها طبع ويهيجها طمع .

قيل : فلما طمحت نفس أنوشروان إلى تملك تلك الأرض ، سأل عن ملكها، فأُخبر بأنه عظيم من أراكنة الهند[(١)] ، وأنه شاب منقاد لشهوته ، مقبل على لذاته، إلا أنه سالك صراطاً من العدل لايجور ، ومالك منهلا من البذل لا يغور ، إلى رأفة برعيته قد أشربت قلوبهم وده ، وركنت آمالهم إلى ما عنده .

فندب له كسرى من ثقات أصحابه ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وتفقه فى سياساتهم وكان ذا دهاء وفكر ، وحزامة ومكر ، فأمره بتأمل مسالك تلك الأرض والبحث عن ثغورها ومعاقلها ، وتطلب عورتها وتفقد أخلاق ملكها وأهلها ، وكتب معه كتابا إلى ذلك الأركن يدعوه فيه إلى الدخول فى طاعته، ويحذره التعرض لصولته بمخالفته .

فانطلق ذلك الرسول حتى قدم على الأركن ، فأحسن منزله وبالغ فى بره وتكرمته ، وعمى عليه الأخبار وبالغ فى قبضه عن التصرف وفى قبض الناس عن لقائه واحتجب عنه ، ولم يستدع الكتاب منه ، وندب لاختباره وعلم ما قصد له رجلا من دهاة أصحابه ، فأمره بالتجسس على أنبائه والتلطف فى مداخلته ومخاتلته[(٢)] . فانطلق ذلك الجاسوس فاكترى حانوتا[(٣)] بإزاء دار الرسول ، وملأه فخارا وجلس فيه ليبيع ذلك الفخار .

وكان للرسول غلام يخف فى حوائجه ويتصرف فى مآربه ، فجعل الجاسوس إذا رأى ذلك الغلام هش له وأكرمه وسأله عما له من حاجة ، إلى أن أنس به الغلام فكان يجلس إليه ويستعين به على أمره ، فلبث بذلك مدة لا يسأله عن شيء من أمر سيده ، فلما تأكد أنس الغلام به قال له يوما : من تكون ؟ ومن لك فى هذه الدار التى تدخلها ؟ .

فقال له الغلام : صحبتنى منذ كذا وكذا ولا تعرفنى ؟ ، فقال الجاسوس : وما علمى ؟ .

---

(١) أى ملوك الهند .

(٢) أى مخادعته .

(٣) أى استأجر محلاً بجانبه .

قال له : أنا غلام رسول كسرى وسيدى فى هذه الدار ، فقال الجاسوس : ومن كسرى ومن رسوله ؟ .

فقال الغلام : كسرى ملك بابل أرسل سيدى إلى ملك أرضكم ، فقال الجاسوس : قد عرفت حين ذكرت بابل لأنى كنت فى صباى أجيرا لرجل من أهل بابل ، ثم أمسك عن الغلام أياما لا يسأله شيئاً .

وكان يقال : التنقير[1] تنفير .

وقيل : التنقيب يريب الأريب[2] .

وقيل : من تسرع إلى الأمانة فلا لوم على من اتهمه بالإضاعة ، ومن تسرع إلى المشاركة فى السر فلا لوم على من اتهمه بالإذاعة ، ومن تنصح قبل أن يستنصح فلا لوم على من اتهمه بالخداع ، ومن عنى بكشف ما ستر عنه فلا لوم على من اتهمه بخبث الطباع .

قيل : إن الجاسوس قال للغلام يوما : إذا خرج مولاك فأرنى إياه .

فقال الغلام : إن مولاى لا ينصرف ، قال الجاسوس : أمريض هو ؟ .

قال الغلام : لا ، ولكن ملككم حظر عليه الخروج وعلى الناس الدخول إليه، فبكى الجاسوس ، فقال له الغلام : ما الذى أبكاك ؟ فقال الجاسوس : أبكتنى الرحمة لمولاك مما هو فيه ، لأنى ابتليت بمثله ؛ وذلك أنى حبست مرة فى دينٍ كان علىّ ومنعت امرأتى من الدخول على ، فولا أن الله تعالى من علىَّ برجل كان محبوسا معى فكان يسلينى بحديثه وأنسه[3] لهلكت غما ؛ فهل تحدث مولاك وتسليه ؟

فقال الغلام : إنى لا أعرف هذا ولا أدرى خبرا أطربه به ، فقال الجاسوس له: أفلا أدلك على ذلك ؟ فقال الغلام : بلى ، فأحسن إلى بذلك .

فقال له الجاسوس : إذا خرجت من عند مولاك فطف فى المدينة وتأمل ما

---

(١) الجدل والنزاع .

(٢) الماهر الذكى .

(٣) أى استأنس بحديثه وكلامه .

تراه فيها ، فإذا رأيت جماعة يتحدثون فاجلس إليهم واستمع ما يفيضون فيه ، فإذا رجعت إلى سيدك وخلوت معه فقل : رأيت اليوم كذا وكذا وسمعت من يقول كذا وكذا ؛ فإن فى هذه تسلية له ، وأنسا من وحشته ويوشك إذا فعلت ذلك أن تحظى بما عنده . ففعل ما أمره به الجاسوس فقال له سيده : من دلك على فعل هذا ؟ فقال الغلام: أنا فطنت له ففعلته ، فقال له سيده : كلا ليس هذا فى قوى عقلك ، فأخبرنى بمن دلك عليه .

فقال الغلام : دلنى عليه جار لك يبيع الفخار ، ما رأيت أجهل ولا أبله منه ، فقال له سيده : من الذى دلك على بلهه[1] وجهله ؟ فقال الغلام : إنه صحبنى أكثر من شهر ، وهو لا يعرف من أنا ولا من سيدى ، وذكرت له مُلك كسرى فإذا هو لا يعرفه ، فلما سمع الرسول ذلك استراب منه وحدس أنه متجسس عليه، لما رأى أنه قد أفرط فى تجاهله .

وكان يقال : من أفرط فهو كمن فرط ، ومن احتفل فى غلوه استفل[2] عن علوه .

وكان يقال : ما دل على الأحوال كالأقوال ، ولا هتك قناع العقول كسماع المقول .

وكان يقال : من لم تعرفك غائبا أذناه لم تعرفك شاهدا عيناه .

قيل : فلما سمع الرسول مقالة عبده أمره أن يأتيه به ، ففعل ، ولما رآه الرسول حقق ما كان ظنه به من كونه جاسوساً عليه ، فأكرمه وقربه وتظاهر له بغباوة وجهل لا مزيد عليها ، وسأله أن يواصل زيارته ، فلبث الجاسوس متفقداً حال الرسول فى ليله ونهاره مدة متراخية ، ولما ظن ذلك الجاسوس أنه قد حصل ما أراد علمه من أمر رسول كسرى ، ذهب إلى الملك فأخبره أن ذلك الرسول فدم عيى[3] ، لا ذكاء له ولا غناء عنده أكثر من أنه ذو نجدة وفروسية ونفس أبية ، فوثق الملك بقوله وتخيل الرسول بالصورة التى مثله بها الجاسوس عنده

---

(١) ضعف عقله وعجز رأيه .

(٢) أى سقط وهبط .

(٣) أى ذو حماقة وغباء .

وكان يقال : لايكن سمعك لأول مخبر ولا تقتك لأول مجلس .

وكان يقال : إذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب فالقضاء له بأحدهما قبل الامتحان جور .

وكان يقال : إنما يقضى بصدق الخبر عصمة المخبر لا صدقه ، وشرح هذا: أن المخبر الصادق - إذا لم يكن معصوما فهو - عرضة للتلبيس وفرصة للتدليس ، وكون المخبر ثقة صدوقا إنما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله ولا يفيد عصمة إدراكه ، فقد ينظر الصادق المغفل إلى الشمس فيخبر بأنها غير سائرة ، وينظر إلى القمر ودونه مقطعات السحاب فيخبر بأنه أدرك سرعة سيره، وينظر من سفينة جارية إلى البر فيزعم أن البر يجرى ، وينظر إلى أخبار الشعوذى[1] فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هى عليه ، ويسمع كلام الببغاء المحجوبة عن بصره فيخبر عن إنسان ، فلم يدخل الخلل من جهة تحريفه لكن من جهة إدراكه.

قيل : فلما وثق الأركن بمقالة جاسوسه أحضر رسول كسرى ، فأكرمه وخاطبه بكل قول حسن ، وأخذ منه الكتاب ، وخلع عليه ، وأجزل صلته ، ورده إلى منزله مكرماً مبروراً ، وأباح له التصرف ، وأذن لمن أراد قصده فى زيارته، وتابع إلحافه وتكرمته ، ولبث بذلك عاماً ، ثم استحضره وسلم إليه جواب كتابه وأعطاه هدية إلى كسرى يقال : إن منها سيفاً طوله خمسة أشبار ، ولونه كلون النحاس الأحمر ، يعمل فى الحديد كما يعمل غيره فى الرصاص ، وصفحة من الياقوت الأزرق تسع مَنًّا[2] من الطعام وكأساً من الزمرد البحرى يسع رطلا من الشراب ، وألف درة فريدة ، وقنديلاً من المها[3] فيه ياقوتة حمراء كبيضة الحمام إذا علق فى بيت فيه مصباح ليلا ألقى شعاع الياقوتة على الألوان القابلة للحمرة فلا يشك فى حمرتها ، وطيباً كثيراً ، ودروعاً ودرقاً[4] ،

---

(١) أى الدجال المشعوذ .

(٢) كيل أو ميزان وهو شرعاً ١٨٠ مثقالاً وعرفاً ٢٨٠ مثقالاً .

(٣) أى البللور .

(٤) الدرق ، مفردها الدرقة : وهى الترس من جلود ليس فيه خشب .

وغير ذلك ، وخص الرسول بخباء[١] وذخائر نفيسة ، وصرفه إلى مرسله .

فلما قدم الرسول على كسرى سأله عما ندبه لتعرفه ، فأخبره بطيب تلك الأرض ، وفضائل خصائصها ، وشرف مزاياها وحصانة ثغورها ، وأنه لم يجد لها عورة تؤتى منها إلا غرارة[٢] سكانها ، وأن عقولهم متهيئة لقبول الخدع ، محجوبة عن النظر فى العواقب ، وأن هذا هو موجب حسن طاعتهم لمن ألفوا طاعته ، فلو ندب إليهم رجال يحسنون نصب الدعوات إلى الدول لاستمالوهم وصرفوا طاعتهم عن ملكهم ، فإذا انصرفت طاعتهم لم تقم لملكهم بعد ذلك قائمة، لأنهم أعضاده الذين يصول بهم ، فهم فى الرخاء ثمار مجتناة وفى البلاء سيوف منتضاة[٣].

فنظر كسرى فيما كتب إليه به الأركن ، فوجده قد خاطبه بالملاطفة ، واعترف بفضله وتملقه ، ورغب إليه فى الموادعة والمؤاخاة ، فاستشار أنوشروان وزراءه فى أمره وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمسالمته ، فاختلفوا عليه، فأجمع على أن يرد هديته إليه ففعل ، ثم إنه ندب لإستفساد رعيته رجالا يحسنون نصب الدعوات وقلب الدول ، وأمدهم بالأموال ، وأزاح عللهم وبين لهم مثالاً يحذون عليه ، فنفروا لما أمرهم به حتى انتهوا إلى مملكة ذلك الأركن ، فتفرقوا فيها وعمل كل واحد قوته فيما انتدب له .

فلما أتى عليهم عامان أحكموا ما أرادوا من ذلك فى دار مملكة الأركن وفى غيرها من مدنه وحصونه ورساتيقه[٤] ، وكتبوا بذلك إلى كسرى ، فحرك إليهم المرزبان[٥] المتولى ربع المملكة المقابل لتلك الجهة الهندية ، وذلك أن أقليم بابل كان مصروفاً إلى أربع مرازبة ، لكل مرزبان منهم ربع منه ، ومع كل مرزبان منهم خمسون ألف مقاتل .

---

(١) ما يعمل من وبر أو صوف للسكن .

(٢) أى غفلة سكانها .

(٣) مجهزة ومستعدة

(٤) الرساتيق ، مفردها الرستاق : وهى القرى الصغيرة وما يحيط بها من الأرض .

(٥) المرزبان : كلمة فارسية وهى تعنى الرئيس عند الفرس .

فلما شرع ذلك المرزبان فى الحشد والإعداد كتب عيون الأركن بتلك الجهة إليه يخبرونه بأن المرزبان المجاور لجهة بلاده قد أخذ فى حشد الأجناد وتأهب الاستعداد ، فعلم الأركن أنه قاصده ، ونجم النفاق ببلده ، وتحدث الناس بقصد المرزبان إليه وأكثروا الأراجيف[1] فانتبه الأركن من غفلته ، وبحث عن الأمر ، فوقف على حقيقته ، وكان أمر مملكته يدور على خمسة رجال ، أربعة منهم هم وزراؤه ، والخامس هو صاحب بيوت النار ورئيس الزمازمة[2] والذى يأخذون عنه دينهم . فجمعهم الأركن وعرفهم بما بلغه من فساد قلوب رعيته ، وحشد المرزبان لقصد بلاده ، وأظهر لهم الحاجة إلى كفايتهم . فجلسوا يتناظرون فى ابتغاء صواب الرأى .

فقال أحد الوزراء الأربعة : الرأى أن يستصلح الملك رعيته ، فيملأ أيديها رغبات وقلوبها أملا ، حتى يستقيم معوجها ، ويأنس نافرها ، فإن عدونا إذا علم بذلك جبن عن الإقدام عليها ، وإن أقدم لقيناه بكلمة مجتمعة وأيد متناصرة .

فقال رئيس الزمازمة : إنما يصلح هذا من الرعية ، لو كان فسادها أوجبه هضم جور أو عسف سيرة ؛ فيزال عنها سبب فسادها فتصلح ، وليست رعية الملك بهذه الصفة ، وإنما أورد عليها الفساد جهلها بمواقع الصواب ، وبطرها لترادف النعم .

وقد قيل: أربعة إذا أفسدهم البطر لم تزدهم التكرمة إلا فسادا : الولد ، والزوجة والخادم ، والرعية . وضربوا لذلك مثلاً : القوى الأربعة المرذولة[3] ؛ إذا هاجت لتعدى حدود المصلحة وهى : الغضب إذا تعدى حد الشجاعة ، وحد الأنفة من الرذائل، والشهوة إذا تعدت حد راحة العقل من كد اكتساب الفضائل ، والحرص إذا تعدى حد الكفاية ، والكسل إذا تعدى راحة الجسم من كد اكتساب المصالح ، فإن هذه القوى الأربع إذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المداراة والرفق إلا هيجانا وطغيانا ، وإنما تعانى بحسم موادها .

فقال الملك : صدق الحكيم . ثم قال وزير آخر من الوزراء الأربعة : الرأى

---

(١) الأراجيف : الأخبار المختلطة الكاذبة السيئة .
(٢) أى أولو الأمر .
(٣) الفاسدة الرديئة .

عندى أن نضرب بمن صلح من الرعية من فسد منها ، حتى تستقيم وتستوثق لنا، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله(١) ولا نحذر غشه ؛ لأننا مضطرون إلى الحرب؛ لكون عدونا لا يرضيه إلا أخذ ما بأيدينا .

فقال رئيس الزمازمة : هذا أنفع لعدونا من جيشه وأدعى إلى طاعته من دعاته مع أنه إذا علم بحربنا ، فيما بيننا وتناصبنا ؛ ذهبت هيبتنا من نفسه وبلغ فينا أمله .

وقد قالت الحكماء : أربعة من استقبلها بالعنف والردع فى أربع أحوال هلك بها : الملك فى حال غضبه ، والسيل فى حال صدمته ، والفيل فى حال غلمته ، والعامة فى حال هيجها ومرجها .

وقالوا : إن أشبه شيء بردع العامة عند تنمرها وهيجها معاناة الجدرى(٢) فى حال انبعاثه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة .

فقال الملك : صدق الحكيم ، فقال وزير ثالث : الرأى عندى أن نطلب أولا تعيين من فسدت طاعته من الرعية ، فنميزه ممن سواه ، ثم نرى رأينا بما يقتضيه حاله من قلة أو كثرة أو ضعة أو نباهة أو ضعف أو قوة ، فنقابله بما توجبه حاله من التدبير .

فقال رئيس الزمازمة : البحث الآن عن هذا خطر عظيم ؛ لأنه يوحش المريب فيحركه على اللحاق بعدونا واعتماده بالنصائح ودلالته على عورتنا ، وإذا التحق مع عدونا قاتل معه على بصيرة ليست لعدونا ، وبذل جهده فى العود إلى وطنه وأهله وماله ، وعدونا لا يقاتلنا على مثل ذلك ، وربما لم ينفصل عنا المريب بل يعادينا بموضعه ويكاشفنا ، ويتكثر علينا بشكله من الرعية فينصره ، وإن لم يكن على مثل رأيه لِعِلَّة مشاكلته له ، كما أن الكلبين لا يمنعهما تعاديهما وتهارشهما(٣) من التعاون على الذئب إذا أبصراه ، ولا يلتفتان إلى تحقق الذئب فى الخلق الكلبى ، ولكنهما ينافرانه ويصطلحان فى التعاون عليه ، نظرا إلى خصيصى توحشه وأنفته وجرأته ، فكذلك العامى لا ينظر إلى الملك

---

(١) إفساده .

(٢) الجدرى : مرض يسبب بثوراً حمراً بيض الرؤوس تنتشر فى البدن وتتقيح سريعا وهو شديد العدوى .

(٣) أى تحرش بعضهما ببعض .

من حيث تحققه فى الخلق الإنسانى ، بل ينظر إليه من حيث خصيصى تفرده وأنفته وعلو همته ، فينافره لذلك ويألف العامى الذى يشاكله فى الأخلاق بعلة المشاكلة[(١)] .

وقد قالت الحكماء : ثلاثة إن كاشفتهم بالامتحان فى ثلاث أحوال خسرتهم: مؤدبك فى حال استقلالك ، وصديقك فى حال اختلالك[(٢)] ، وامرأتك فى حال اكتهالك ، والرعية كالزوجة ، وإدبار الملك كالاتهال[(٣)] .

وقالوا : مثل ذلك كمثل امتحان قوى معد الناقهين[(٤)] من الأمراض بالأطعمة الغليظة .

فقال الملك : صدق الحكيم . فقال الوزير الرابع ، وكان أوسعهم حلماً وأفضلهم رأياً : أما أنا فأحدث الملك حديثاً أخبرنى به مؤدبى وكان من آخر ما أفادنيه ، وقال لى : اخزن هذا الحديث فى حبة قلبك ، ولا تتمنى أن تعيش إلى اليوم الذى تحتاج فيه إليه ، وإنى لأحسبه هذا اليوم .

فقال له الملك : قل نسمع لحديثك .

فقال له رئيس الزمازمة : ما أولى بالإصابة .

فقال الوزراء الثلاثة : إنه لكذلك .

فقال الوزير الرابع : إنما نحن كأصبع الراحة فى افتقار بعضها إلى بعض وقوة بعضها ببعض وتزين بعضها ببعض ، ثم إنا نستمد من نور عقل الملك السعيد بنظرنا إليه واستماعنا منه كما تستمد الدرارى[(٥)] من نور الشمس ، فكلنا إلى الملك محتاج وبه مقتد .

فقال الملك : قل أيها الوزير الصالح ، بالقبول والكرامة لك ولمن نُبت عنه، فأنتم فى مناصحتنا والغناء عنا والأداء إلينا كالحواس الخمس للقلب ، فسجدوا له

(١) المشابهة .

(٢) الاختلال : الكرب والضعف .

(٣) الإتهال ، مفردها تهيل : وهو الرمل المنهال المنصب . أى إن ملكه ينهال وينفرط مثل الرمال .

(٤) أى كامتحان معدة من شفى من مرض فى فترة النقاهة .

(٥) الكواكب .

أجمعون .

ثم قال الوزير الرابع : زعم مؤدبى أن رجلاً موسراً من التجار كان يأوى إلى بيت مبطن السقف ، وفيما بين ذلك السقف وبطانته فئران كثيرة ، فكُنَّ فيما شئن وادعين من الأمنة وتيسير الطعمة ، يمرحن النهار كله على حال طمأنينة ، فإذا جاء الليل نزلن من السقف ، فتفرقن فى مخازن التاجر ومساكن عياله ، فأكلن واحتملن ، فكثر أذاهن على التاجر ، وأنه دخل يوماً مسكنه ذلك فاستلقى فيه مفكراً فى بعض أموره ، ودخلت الفئران تمرح على بطانة السقف ، والتراب يتساقط من خلل الألواح فضجر التاجر ونهض مبادرا ، فأمر بتحويل ما فى البيت من الأثاث ثم أمر عبيده فوضعوا بطانة السقف ، وانتشر الفئران فى الدار فقتلن شر قتلة ، ولم ينج إلا جرذ[1] وفأرة كانا غائبين عن السقف ، فلما رجعا وأبصرا فساد وطنهما ومصارع الفئران فى جميع الدار راعهما ذلك ، وأقبل الجرذ على الفأر فقال لها : لقد صدق القائل : من صحب الدنيا واثقا بها كان كالنائم فى الظل الذى يكون قبل بلوغ الشمس إلى نصف دائرة فلكها الأعلى ؛ فيتقلص الظل بتصوب الشمس، فيوقظه حرها ولا يجد للظل عينا ولا أثرا . فقالت الفأرة : صدقت فماذا ترى ؟

قال الجرذ : أرى أن لا أسكن بموضع ينال منه هذا المنال ، وأفر من الأنس جهدى ، فإن هيجهم شديد وحيلهم أمضى من قوة غيرهم من العوالم .

فقالت الفأرة : أنا معك ، فانطلقا حتى أتيا أرضاً بواراً جرداء ذات أخلاط من الوحوش ، تكتنف[2] وادياً معشبا فيه غدران ماء ذات ضفادع وسلاحف . فأعجبهما ذلك وسارا فى الوادى يلتمسان موضعاً يحتفران فيه جحراً ، وانتهيا إلى ربوة عالية فى وسط ذلك الوادى قد انجاب[3] عنها مسيل الماء فيه يمينا وشمالا ، فاحتفرا فى أصل تلك الربوة جحراً رضياه وأوطناه ، وأنهما غليا يوماً

---

(١) فأر ذكر .

(٢) تحيط .

(٣) انشق وقطع .

من الأيام تلك الربوة ، فرأيا فى أعلاها يربوعا[(١)] قد علت سنه على بـاب جحـر له ، فرحب بهما وحادثهما وسألهما عن أمرهما ، فأخبراه إلى أن ذكرا له أنهمـا أوطنا جحرا فى أصل تلك الرابية[(٢)] ، فقال لهما اليربوع : لولا أن النصح كثيرا ما يدعو إلى التهمة لنصحت لكما . فقالا له : ما أحوجنا إلى نصحك .

فقال لهما : إنه كان يقال : أربع لا تقدم عليها حتى تسأل عنها الخبير بها : السوق لا تقدم عليها حتى تسأل عن النافق[(٣)] فيها والكاسـد[(٤)] ، والمـرأة لا تقـدم عليها حتى تسأل عن منصبها وخلقها ، والطريق لا تسلكها حتى تسأل عن أمنها وخوفها ، والبلد لا توطنهـا حتـى تسـأل عـن مرافقهـا وسـيرة سـلطانها وأخـلاق أهلها، وقوة من يكيد أهلها ويعاديهم .

وكان يقال : انظر إلى المنتصح فإن أتاك بما يضر غيرك ولا ينفعك فـاعلم أنه شرير ، وإن أتاك بما ينفعك ويضر غيرك فاعلم أنه طامع ، وإن أتـاك بمـا ينفعك ولا يضر غيرك فاصغ إليه وعول عليه[(٥)] .

وكان يقال : إذا لم تعن ناصحك على نفسك ، كان ناصحك كمن يريد تقويـم ظل عود قد نصب معوجاً قبل أن يقيم العود فى منصبه .

وكان يقال : إذا أردت أن تعلم ما يغلب على الإنسان من قوى الخير والشـر فاستشره ، فإن دلالة رأيه عليه أصح دلالة .

وكان يقال : شر ما فى عالم الأخلاق التعاطى ؛ لأن التعاطى يزيد المتخلـق به شراً ويعرضـه فى مواسم الخزى ، وهذا كالضعيف يتعاطى القوة ، وكالجاهل يتعاطى العلم ، وكالفقير يتعاطى الغنى.

وكـان يقـال : إذا احتجت إلـى المشـورة فشـاور ذى الحنكـة والتجربـة مـن طبقتك، ولا تشاور من ليس من طبقتك فيخرجك عـن حـدك لكونـه خارجـاً عـن عالم خصائصك .

---

(١) نوع من القوارض ، يشبه الفأر له ذنب طويل ، قصير اليدين ، طويل الرجلين .

(٢) ما ارتفع من الأرض وهى التلة والربوة .

(٣) الرائج ، والمرغوب فيه .

(٤) غير المرغوب فيه .

(٥) أى اعتمد عليه .

واعلما أنه قد جمعتنى وإياكما مناسبة صناعية وهى حفر الجحر ، إلا أننى فى علمها أرسخ منكما ، فانتقلا من جحركما ، فإنه بئس الجحر ومن شر الأوطان ، وأنا ابن بجدة[1] هذه الأرض والخبير بها ، وقد قيل : قتل أرضاً خابرها ، فتحولا عن ذلك الجحر واطلبا مأوى سواه .

فخرجا من عند اليربوع يهزآن به ، ويسخران منه ، وينسبانه إلى الهَرَم[2] والخوف ورجعا إلى جحرهما فلبثا به مدة طويلة وولدا فيه أولادا ، ثم إن الجرذ خرج يوما من الأيام فأوغل فى تلك الأرض لبعض شأنه ، ثم عاد قاصدا إلى الربوة ، فإذا السيل قد جرى فى ذلك الوادى ، فأحدق بالربوة وارتفع حتى صارت الربوة فى مثل البحر العجاج[3] ، فوقف على ضفة الوادى ينظر متحسرا لفساد وطنه وهلاك إلفه وذهاب ما أعد من طعمته ، فرأى اليربوع قاعدا على الربوة آمنا ، فناداه اليربوع : أيها الجرذ كيف وجدت ثمرة إضاعة الحزم ومعصية الخبير النصيح ؟ فقال الجرذ : وجدتها مُرة .

فقال اليربوع للجرذ: هون عليك وخفض من حسرتك، فإن النعمة فى بقاء نفسك تربى على المصيبة بأهلك وولدك، فانس النعمة بالشكر تألفك ، فتستمتع بها.

وإنه كان يقال : أظهر البشر لثلاثة : للصديق ، والغريم ، والنعمة .

وكان يقال : الحر لا تذهله إساءة من كان أحسن إليه عن شكر إحسانه السالف عنده .

وكان يقال : إذا أحسن إليك محسن ثم تنكر لك وأصابك بمساءة ، فلا تنقبض عنه ودم على شكرك له وبرك به ، فإن ذلك أوجه شفيع لك عنده .

فقال الجرذ لليربوع : ما كان أشقانى أيها الحكيم بمعصيتك والبعد عنك ، وبحق قيل : العاقل ينبغى أن يصحب العلماء الممدين بالحكمة والآداب ، ولو كنت ذا بصيرة لعلمت أنك أيها الحكيم لم تكلف نفسك صعود هذه الربوة

---

(١) أى أعلم بها وبأحوالها ، والبجدة هى الأصل .

(٢) أى العجز وكبر السن .

(٣) المضطرب الثائر .

الكؤود[١] وهبوطها ، على ضعف بدنك وكبر سنك إلا لأمر اقتضته الحكمة وأوجبه الرأى المصيب . ثم إن الجرذ أمهل حتى ذهب السيل ، فصعد الربوة واتخذ جحراً جانب جحر اليربوع فأوطنه آمنا قرير العين ، فهذا ما أخبرنى به مؤدبى .

فقال الملك : صدقت أيها الوزير الصالح قائلا ، وسددت ناصحا ، وأصبحت مشيرا ، وتلطفت مبلغا ، ودعوت سميعا ، فالتمس لنا ربوة ترضاها لاستقرارنا ، نلزم أنفسنا الصبر على صعودها ، ونقصر ما فيها على مألوف ملاذها وانبساطها فى هذا العالم الخبيث إليها ، فلعنا[٢] أن نجتنى السلامة التى اجتناها اليربوع من سيل هذه الفتن .

فقال الوزير : أيها الملك السعيد المفدى بالنفوس الزكية ، عشت ما بدا لك أن تعيش ، ونلت ما أملت ، فما أعجب قبولك ما نهديه إليك من نعمك ونجلوه عليك من حكمك ، وإنى لأعرف فى ناحية من ممالكك معقلاً تطل فيه على أهل الأرض إطلال زحل على الكواكب ، تقاتل دونك الأبصار اللامحة والأفكار الطامحة ، وهو مع ذلك ذو هواء عليل وماء سلسبيل ، وحدائق باسقة[٣] ومرافق متناسقة ، وقد كان بعض سلف الملك السعيد عنَى به بعض العناية ، فقطع عليه الحتم القاطع[٤] عقود الحياة .

فلما سمع الملك ما دله عليه وزيره ملئ سروراً وركب من فوره فى خاصته وثقاته ، حتى انتهى إلى ذلك المعقل الذى دله عليه وزيره ، فوجده فى رأى عينه أفضل مما صوره الوزير فى نفسه ، ووجد به رسوما وثيقة وآثارا أثرها بعض من تقدم من آبائه ؛ فحشد إليه المهندسين والبنائين والعمال ، وأمرهم بالجد فى إكماله ، وبادر من فوره ، فنقل إليه خاص بيوت أمواله ، وخزائن سلاحه ، ونفائس ذخائره وحشد رعيته لحمل الأرز إليه فأودعه من الأرز المقشور وغير المقشور ما ظن أن فيه كفاية ، وذلك أن الأرز الذى لم

---

(١) المضنية والشاقة .

(٢) أى لَعَلَّنا .

(٣) أى عالية الأشجار جميلة المنظر .

(٤) الخائب .

يقشر طويل البقاء ، وأعد لنزوله عدته وهو مع ذلك يسد الثغور ويجند الأجناد ويشيد الحصون .

فلما مضت له ثلاثة أشهر من يوم كتب إليه جواسيسه بحركة المرزبان وحشده ، اقتحم المرزبان ثغوره فى الجيوش المتوافرة والعدة الكاملة ، وظهر دعاة كسرى بتلك الناحية فيمن استفسدوه من الرعية ، فغلبوا على ما يليهم من البلاد ، واستعمل المرزبان عليها عمالا من ثقاة أصحابه ، ورتب فيها حماة من جنده ومن أهلها ، ثم دنا يطوى الأرض ، فوافته جيوش الأركن فدافعته بعض الدفاع ، ثم انهزم من كان فى نفسه دغل ، فانهزم المناصحون بانهزامهم ، واستولى المرزبان على عسكرهم ، واستبقى النفوس ، وأخذ الأموال ، ثم تجاوزهم يطوى المملكة طيا ، وكان الأركن عندما اقتحم المرزبان ثغوره ، قد بعث بأهله وحشمه إلى ذلك المعقل ، وجمع وجوه قاطنى حضرته فوعظهم وذكرهم ما سلف من إحسانه إليهم وذكر ما بلغه عنهم من فساد الطاعة وما كرهه من امتحانهم ومعاقبة المسيئين منهم ، فنصلوا بما قرفوا(١) به عنده ، وحلفوا له على استقامة طاعتهم وصدق مناصحتهم .

فقال لهم الملك : إنى لم أجمعكم لهذا ولست بناكل(٢) عن عدوى ولا بمستبعد الظفر به والنصر عليه ، ولا بمعين تهمة أحد منكم ، غير أنه أخبرنى بعض وزرائى عن ملك من سلفى أنه شرع فى بناء معقل وعنى به بعض العناية ، فحال بينه وبين ما أراد من إتمام ذلك الانحلال المحتوم على عالم التركيب ، فحملنى على تكملة ما شرع جدى قول الحكيم : إن أبر الملوك من تم به سلفه ، وأعقهم من انقطع سعيهم عنده ، ثم إنى أحببت أن أجعل ذلك الحصن من عددى وذخائرى ، لقول الحكماء : إن أحزم الرعاة من أعد لجميع قضايا العقل أحكاما .

وقولهم : يجب على الملك أن لا يخلو من خمسة معاقل : أحدها وزير صالح يتحصن برأيه ، والثانى : سيف قاطع يتحصن بحده إذا غشى ، والثالث : فرس سابق يتحصن بظهره إذا لم يمكنه الثبات ، والرابع : امرأة حسناء يحصن

---

(١) أى نفوا ما ارتكبوه من خروج عن طاعته .

(٢) أى بجبان وناكص .

بها فرجه وبصره ، والخامس : قلعة منيعة يتحصن بحلولها إذا أحيط به ، فاتخذت هذا المعقل لتكمل به حصونى ونقلت إليه ذخائرى وما يكرم على ، فمن أراد منكم أن يقتدى بى فى فعلى أخذا بالحزم فليفعل .

ولما فرغ من مخاطبتهم أذن لهم فخرجوا من عنده ، فاقتدى به منهم من كان ذا عقل وخبرة ، فجهزوا إلى ذلك المعقل أهليهم وأموالهم وأقواتهم .

وأما المرزبان فإنه صار إلى تلك المملكة يطويها طى السِّجل ؛ لا يقاومه جيش إلا هزمه ، حتى أشرف على حضرة الأركن فنزل على فرسخ منها وتهيب الإقدام عليها وقد كان الأركن أمر الناس بالخروج إليه ، فخرجت أمّة عظيمة وخرج الأركن فى أربعة آلاف مقاتل من عبيده وخاصته وثقاة أصحابه ، فقام بهم فى معزل عن جيوشه ورعيته بظاهر المدينة وعبأ فيوله ورتب صفوفه ، وكان فى المدينة داعيان من دعاة كسرى فاغتنما الفرصة واهتبلاها[1] عند خروج الملك من المدينة فظهروا واتبعهما من كان أطاعهما ، فوثبوا بخليفة الملك على المدينة ، فقتلوه واستولوا على المدينة وضبطوها .

وبينما الملك قائمٌ فى جنوده فى ظهر المدينة أتاه رئيس الزمازمة حافياً حاسراً يلطم وجهه وينتف شعره ، فأمر الملك بحمله معه على فيله ، واستخبره فأخبره بذهاب دار ملكه وخيانة رعيته ، فانحاز الملك بخاصته ومن كان على بصيرة فى طاعته وتوجهوا حامية نحو الحصن ، وانتهى خبره إلى المرزبان فوجه خيلا لأتباعه فأدركه فوقف بإزائهم من كفى أمرهم وسار حتى دخل حصنه.

وأما المرزبان فإنه قصد المدينة ودخلها وضبطها وأحكم أمرها ، ثم سار فى جنوده إلى ذلك الحصن ، فرأى منظرا عجيبا رائعا ومعقلا ممنوعا مانعا ، لم يمكنه النزول بالقرب منه ، فنكص إلى حيث أمن ونزل فى جيوشه متحفظا ، وكتب إلى الملك الهندى كتابا يخاطبه فيه بالتعظيم والإجلال ، ويعرض عليه خصالا منها أن يرده إلى مملكته مكرما موفورا على أن يدين بطاعة كسرى ، فلما انتهى رسول المرزبان إلى الملك الهندى حجبه ولم يأخذ كتابه وأمره بالعود

(١) أى انتهزا الفرصة .

إلى مرسله ، فيئس المرزبان منه .

وكان يقال : صرفك النظر إلى عدوك إضاعة ، وإصغاؤك السمع إلى حديثه طاعة .

وكان يقال : إذا أمكنت عدوك من أذنك فقد تعرضت للغرق في بحره والدخول في وهن سحره .

وكان يقال : عجباً لمن يصغى إلى عدوه سمعاً وهو لا يرجو عنده نفعاً .

وكان يقال : إذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فأنت عن التحصن من كيده أعجز .

ثم إن المرزبان عاد إلى المدينة وكتب إلى كسرى بالفتح وبما تهيأ له وعليه من الأمور ، فكتب إليه كسرى يأمره أن يقيم بتلك المملكة ويترك التعرض لذلك الأركن في حصنه ، إلا أن يبدو منه فساد ، وأن يذكى العيون عليه ويقيم المسالح[1] في جهات حصنه ، ففعل المرزبان ما أمره به كسرى ولبث بذلك مدة وجعل أعوان الفرس يعبثون في تلك المملكة ويعاملون أهلها بالفظاظة والقسوة التى طبع الهند على ضدها ، فدبت الشحناء[2] في النفوس ، ودخلت أهل تلك المملكة الغيرة لما رأوا أن خراج أراضهم يحمل إلى غيرها وينفق في غير أهلها، وعرفوا فضل ما كانوا فيه ، ومشقة ما صاروا إليه ، فبسطوا ألسنتهم وخاف المرزبان أن يردعهم عن القول فيستوحشوا منه ، فكف عنهم فكان ذلك داعية إلى زيادتهم في بسط الألسنة .

وكان يقال : أيدى الرعية تبع لألسنتها ، فإذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تصول .

وكان يقال : ترك نكير الصغائر[3] مدعاة إلى الكبائر ، فأول نشوز المرأة[4] كلمة سُومِحَتْ بها ، وأول حرض الدابة[5] حيرة سوعدت عليها .

---

(١) المسالح ، مفردها مسلحة : وهو موضع السلاح ومركز الجنود .

(٢) العداوة والبغضاء .

(٣) أى الأفعال الصغيرة التافهة .

(٤) عصيانها لزوجها .

(٥) الحرض : مهزولة يقال : (ناقة حرض) ، أى ضاوية مهزولة .

قيل : وأما الأركن الهندى فإنه لما استقر فى حصنه شاور وزراءه ، فأشاروا عليه بالصبر وكف الأذى ، وبسط العدل والإحسان ، وتأمين السبل وإجارة المستجير ، وتأليف المستوحشين ، والأخذ بالفضل والعفو . فاتخذ هذه الخلال شرعا يدين به ؛ فأزادت سمعته حسنا والقلوب إليه ميلا والألسنة له شكرا.

واتفق أن عاملاً للمرزبان على ثغر من تلك الثغور أساء السيرة ، فقام إليه رجل كان أفضل أهل عمالته ونصح له فكره العامل ذلك ، وكتب إلى المرزبان يزعم أن رجلا من أهل عمالته يعارض أمره ويؤلب العامة عليه ، فكتب إليه المرزبان يأمره بحمله إليه مقيدا ، فأخذ الرجل فقيده وبعث به إلى المرزبان مع رجال من الجند ، فتبعهم أحداث من فتيان ذلك الثغر وفتاكهم ، فقتلوا أولئك الموكلين بذلك، وأطلقوه ، فأتى الرجل إلى العامل فأخبره بما فعل أولئك الأحداث وأنه عجز عن دفعهم ، فأمر به العامل فضربت عنقه وكان ذا منزلة عند أهل بلده فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله ، وضبطوا ثغرهم ، وانضوى[1] إليهم من كان على مثل رأيهم ، ومن كان فى غير حصن ، وكاتبوا من يليهم فأجابوهم إلى مثل ما صنعوا وطردوا عمالهم ، فانتقضت الطاعة لكسرى فى مواضع كثيرة من تلك المملكة فى أسرع مدة .

ولما انتهى ذلك إلى المرزبان جمع جنده وضبط حضرته على حال ذعر وتوق شديد ، وكتب إلى كسرى يستمده ، وكان أهل حضرته عندما خرج عنهم رئيس الزمازمة ، وتوجه مع ملكهم إلى حصنه قدموا مكانه خليفة ، وكان مرضيا عندهم ، فلما رأى ما فيه المرزبان من الذعر والتوقى[2] وقصده من خافه بالمحنة والعفو له ، دخل على المرزبان فقال له : إنى أريد أن أسألك عن أمر ظننت علمه عندك .

فقال له المرزبان : قل . فقال : بلغنى أن مما أوصى أزدشير بن بابك[3]

---

(١) انضم وانحاز .

(٢) التحرُّز .

(٣) أزدشير بن بابك : مؤسس سلالة الساسانيين فى فارس الذين حكموها ، وهو أول ملوكها، فرض الزرادشية ديناً لدولته ، وله العديد من المعارك الحربية التى انتصر فيها . البداية والنهاية (٢/١٧١) .

ملك بابل أنه قال : قد تخرج الرعية بعنف السياسة إلى ما لا تريد من المعصية ، وأنه قال فى وصية : ينبغى لمن تغلب على ملك وغصبه[١] ربه أن يحفظ الصورة والشريطة التى تسلم عليها تلك المملكة ؛ فإنها محفوظة عليه وثابتة فى عقد تسلم تلك المملكة له ، فإنها ستخرج من يديه بمثل ما صارت إليه . وقيل : إن هذه الوصية كانت مكتوبة فى مجلسه بإزاء سريره وموضع قضائه.

ففهم المرزبان ما أراد ، إلا أنه أحب الوقوف على آخر ما عنده ، فقال له : الأمر على ما بلغك أيها الشيخ .

فقال رئيس الزمازمة : إذا كان الأمر على ما بلغنى فما لك لم تستعمل الحكمة التى علمت ، وعنفت فى سياسة الرعية عنفا أخرجها ، أو لعله أن يخرجها، ولم تحذر خروج هذه المملكة من يديك بمثل ما صارت إليك ؟.

فلما سمع المرزبان مقالة رئيس الزمازمة انتهره وتهدده ، وكان شيخا ضعيف البدن كبير السن ، فسقط إلى الأرض مغشيا عليه وحمل إلى منزله فمات بعد أيام ، فعظمت المصيبة لموته وساءت القالة[٢] ، وسمحت الأنفس من الشقاق بما كانت منقبضة عنه ، وفشا ذلك فى الرعية فشوا تاما ، فاستحضر المرزبان وجوه من بحضرته فوعظهم وحذرهم بطش كسرى ورغبهم فى العافية ، فأرضوه بألسنتهم وتسللوا عنه وغلظ أمر أهل الأطراف المنتقضة ، وشغل عنهم المرزبان بتحضير البيضة[٣] ، فبعثوا رسلا إلى الأركن الذى كان ملكهم يسألونه الصفح عنهم ، وأن يبعث إليهم رجلا يتحيزون إليه . فأعطاهم أماناً عاماً واستعمل عليهم عاملاً ، فألقوا إليه المقاليد واستبصروا فى طاعته ونصحوا فى الذب عنه .

واضطر المرزبان إلى أن يبعث إليهم جيشا ، فبعث فعادوا منهزمين مفلولين[٤]، ولم يجد بدا من الخروج إليهم بنفسه ، فحصن دار الملك واستخلف عليها من ظن أنه يضبطها ، وخرج منها متوجها إلى عدوه .

فلما فصل عن المدينة وثب أهلها بأصحابه ، فاستوعبوهم قتلا وتشريدا

---

(١) أى نصره .

(٢) أى ساءت الأقاويل بين الناس .

(٣) البيضة : الخوذة من الحديد وهى من آلات الحرب لوقاية الرأس ؛ أى أنه استعد للقتال .

(٤) مشردين .

وأحرزوا مدينتهم ، وبلغ ذلك المرزبان ، فاستمر لوجهه خارجا من تلك المملكة حتى قدم على كسرى طريدا مفلولا ، وعاد الأركن إلى دار ملكه يجرى على سنن العدل ، والأخذ بالحزم ، وقمع شهواته واستعمل الحكمة التى أفادته التجارب إياها .

روضة رائقة ورياضة فائقة

بلغنى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان[١] رضي الله عنه قال لجلسائه وهو محصور فى الفتنة : وددت لو أن رجلاً صادقاً أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء ؛ يعنى الذين حصروه .

فقام شاب من الأنصار فقال : أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، إنك تطأطأت لهم فركبوك ، وتخادعت لهم فسلبوك ، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك .

قال : صدقت ، اجلس ، ثم قال : أتعلم أو هل لك علم بما يثير الفتن ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، سألت عن هذا شيخا من تنوخ[٢] كان باقعة ، قد نقب فى البلاد وعلم علماً جماً ، فقال لى : إن الفتنة يثيرها أمران أحدهما: أثرة تضغن الخاصة والثانى : حلم يجرىء العامة .

فقال عثمان رضي الله عنه : فهل سألته عما يخمدها ؟ قال : نعم وقال لى : إن الذى يخمد الفتن فى ابتدائها استقالة العثرة وتعميم الخاصة بالأثرة ، فإذا استحكمت

(١) عثمان بن عفان : ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى ، أمير المؤمنين ، أبو عبد الله ، أبو عمرو ، وأمه أروى بنت كريز ، ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح. وزوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته رقية من عثمان ، وماتت عنده فى أيام بدر ، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم ؛ فلذلك كان يلقب ذا النورين . وجاء من أوجه متواترة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشره بالجنة ، وعده من أهل الجنة ، وشهد له بالشهادة ، وفضائله ومناقبه رضي الله عنه تطول . مات سنة (٢٤هـ) ودفن بالبقيع . الإصابة (٥٤٦٤) أسد الغابة (٣٥٨٩) .

(٢) تنوخ : قال ابن الجوزى : وتنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على التناصر والتآزر ؛ فسموا تنوخاً . وقيل : قبيلة عربية مسيحية من الحيرة ، اعتنق أبناؤها الإسلام فى عهد الخليفة المهدى وسكنوا حلب . البداية والنهاية (٧٢/١٢) .

الفتنة فليس لها إلا الأزم ؛ يعنى الصبر .

فقال عثمان رضي الله عنه : فهو ذلك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

تفسير ألفاظ اشتمل عليها هذا الخبر

قوله باقعة : أى داهية مجرب ، ويقال : فلان باقعة بقاع إذا طوف بقاع الأرض واستفاد التجارب .

وقوله الأثرة : يعنى اختصاص بعض المستحقين للشيء به دون بعض وقوله الحامة : يعنى الخاصة .

وقوله تضغن : أى تحقد ، والضغن الحقد .

وقوله الأزم : هو الصبر والحبس ، وحقيقته الإمساك على الشيء بالأسنان

قال محمد عفا الله عنه : هذا الحديث ينحو إلى ما ذكره الفرس أن يزدجرد ابن بهرام(١) سأل حكيما من الفلاسفة : ما صلاح الملك ؟ قال : بالرعية ، وأخذ الحق منها بغير تعسف ، والتودد إليها بالعدل وأمن السبل ، وإنصاف المظلوم .

قال : فما صلاح الملك ؟ قال : وزراؤه إذا صلحوا صلح .

قال يزدجرد : أيها الفيلسوف إن الناس قد أكثروا فى الفتن ، فصف لى ما يثيرها وما يسكنها إذا ثارت .

فقال : يظهرها جرأة عامة ، ويولدها استخفاف خاصة ويؤكدها انبساط الألسن بضمائر القلوب ، وإشفاق موسر ، وأمل معسر ، وعطلة ملتذ ، ويقظة محروم .

فقال يزدجرد : وما الذى يسكنها أيها الفاضل ؟ قال : يسكنها أيها الملك أخذ العدة لما يخاف وإيثار الجد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم ، والادراع(٢) بالصبر والرضا عن القضاء .

---

(١) يزدجرد بن بهرام : من آخر ملوك الفرس الساسانيين ، هزمه المسلمون فى موقعة القادسية ونهاوند . وبوفاته انتهى حكم الأسرة الساسانية . البداية والنهاية (٣١/٧) .

(٢) أى الالتزام والتمسك .



السلوانة الرابعة

سلوانة الرضى

قال الله تقدس اسمه عاتبا من خطّأ حكمته وتدبيره وسخط قسمته وتقديره ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة :٥٨].

ثم نبههم على ما حُرِمُوه من فضيلة الرضا بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة :٥٩] .

ووصف صفوته من خلقه بالرضى فقال ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] . ومما يفهمك معنى قوله تعالى ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ ما روى أن موسى عليه السلام قال: إلهى دُلَّنى عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ رَضِيْتَ بِهِ عَنِّى . فأوحى الله عز وجل إليه : إِنَّكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَخَرَّ مُوسَى سَاجِداً مُتَضَرِّعا إلى اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَل إِلَيْهِ : يا ابن عِمرانَ رِضَاى فِىْ رِضَاكَ بِقَضَائِى.

خبر نبوى فى الرضا

مما رويناه أن النبى ﷺ قال «اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ»(١).

قيل : إنما قال بعد القضاء ؛ لأن الرضى بعد القضاء إنما هو عبارة عن العزم على الرضى ، وتوطين النفس على الرضا بالقضاء إذا نزل ، وإنما يتحقق الرضا بعد حصول القضاء .

خبر نبوى فى مثل ذلك

مما رويناه أن النبى ﷺ لقى رجلا من أصحابه وقد أجهده المرض والحاجة ، فأنكره النبى ﷺ وقال له : «مَا الَّذِى بَلَغَ بِكَ مَا أَرَىْ ؟ قال : الْمَرَضُ وَالْحَاجَةُ يَا رَسُوْلُ اللهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَلاَ أُعَلِمُكَ كَلاماً إِن أَنتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَهُ

---

(١) جزء من حديث أخرجه النسائى : كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر (٣/٥٥) والإمام أحمد فى مسنده (٥/١٩١) وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٧٤٢) وعزاه للطبرانى فى الكبير عن فضالة بن عبيد .

اللهُ بِهِ عَنْكَ ؟ فقال : والَّذِىْ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَـا يَسُرُّنِى بِحَظِّى مِنْهَـا أَنِّى شَـهِدْتُ مَعَكَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَة ، فَقَالَ رَسُولُ اللـهِ ﷺ : وَهَلْ لأَهْلِ بَـدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَـةِ مَـا لِلْقَانِعِ الرَّاضِى» .

منثور ومنظوم حِكَم فى الرضى

رُوِىَ أَنَّ عُمَـرَ بنَ الخَطَّـابِ[(١)] رضي الله عنه كَتَبَ إِلى أبـى موسـى الأشـعرى[(٢)] : أما بعد : فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِىْ الرِّضَا ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرْضَى وَإِلاَّ فَاصْبِرْ .

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ : أَنَّ الرِّضَا هُوَ إِطْرَاحُ الإِقْتِرَاح عَلى العَالَم بِالصَّلاَح ، إِذَا كَانَ الْقَدَرُ حَقاً كَانَ سُخْطُهُ حُمقاً ، من رضـى حظـى ، وَمَـنْ تَـرَكَ الاقْـتِرَاحِ أَفْلَـحَ وَاسْتَرَاحَ ، كُنْ بِالرِّضىِّ عَامِلاً قَبْلَ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ مَعْمُوْلاً ، وَسِـرْ إِلَيْـهِ عَـادِلاً وإِلاَّ صِرْتَ إِلَيْهِ مَعْدُوْلاً .

وقيل للحسن البصرى[(٣)]: من أين أوتــى الخلـق؟ فقـال مـن قلـة الرضـا عن

---

(١) عمر بن الخطاب : ابن نفيل القرشي العدوى ، أبو حفص أمير المؤمنين ، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة ، وكـان إليـه السـفارة فـى الجاهليـة ، وكـان عنـد المبعـث شـديداً علـى المسلمين ، ثم أسلم ، فكان إسلامه فتحاً على المسلمين ، وفرجاً لهـم عنـد الضيـق ، قـال عبد الله بن مسعود : وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمـر ، وقـال عنـه الرسـول ﷺ «اللهم أيد الإسلام بعمر» ، وروى عن النبى ﷺ أنه بشره بالجنة وشهد لـه بالشـهادة ، ومناقبه رضي الله عنه لا يسعها هذا المكان . الإصابة (٥٧٥٢) الريـاض المستطابة (١٤٧) أسـد الغابة (٣٨٣٠) .

(٢) أبو موسى الأشعرى : عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حـرب ، الإمـام الكبيـر ، صاحب رسـول الله ﷺ التميمـى الفقيه المقـرىء ، وهـو معـدود فيمـن قـرأ علـى النبى ﷺ. أقرأ أهل البصرة ، وفقههم فى الدين ، وولـى إمـرة الكـوفة لعمـر ، وإمـرة البصرة ، جاهد مع النبى ﷺ وحمل عنه علمـاً كثيراً . مات سنة (٤٤هـ) سـير أعـلام النبلاء (١٨٨) .

(٣) الحسن البصرى : الحسن بن أبى الحسن يسار ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت ، وكانت أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية . وكان سيد أهل زمانه علماً وعمـلاً . وكـان من أعلم الناس بالحلال والحرام . مـات فـى أول رجب سـنة (١١٠هـ) وكـانت جنازتـه مشهودة، صلوا عليه عقيب الجمعة بالبصـرة ، فشيعه الخلق ، وازدحموا عليه ، حتـى إن صلاة العصر لم تقم فى الجامع . سير أعلام النبلاء (٦٠٠) .

الله، فقيل له : ومن أين قلَّ رضاهم عن الله ؟ قال : من قلة المعرفة بالله .

ومما قلته فى الرضى :

يَـا مُقرِعِـى فيمـا يَجِـى ... ورَاحِمِى فِيمَـا مَضَـى[1]
عِنْـدِى لِمَـا تَـقْضِيْـهِ مَـا ... يُرْضِيْـكَ مِـنْ حُسْنِ الرِّضَـى
ومِـنَ القَطِيعَـةَ استَعِيـذُ ... مُصَـرِّحـاً ومُعرِّضـاً

ومن ذلك :

كُـنْ مِـنْ مُدَبِـرِكَ الحَكِيـم ... عَـلا وَجَـلِ عَلَـى وَجَـلِ[2]
وارْضَ القَضَـاء فَـإِنَّـهُ ... حَتْـمٌ أَجَـلَ وله أَجَـلٌ

ومن ذلك أيضًا :

يَامَنْ يَـرى حَالِي وأنْ لَيْس لِى ... فـى غَيْرِ مَا يُرْضِيهِ أَوْطَـار،[3]
ولَيْـسَ لِـى مُلْتَحَـدٌ دُونَـهُ ... ولا عَلَيْـه لِـى أَنْصَـار،[4]
حَاشَـا لِـذَاكَ الفَضْـل والعِـزّ أَنْ ... يَهْلَـكَ مَـنْ أَنْـتَ لَـهُ جَـارُ
وإنْ تَشَـأْ هُلْكِـى فَيَـا مَرْحَبـاً ... بِكُـلِّ مَـا تَقْضِـى وتَخْتَـارُ
كُلُّ عَـذَابٍ مِنْـكَ مُسْتَعْـذَبٌ ... مَـا لَـمْ يَكُـنْ فَقْـدُكَ والنَّـارُ

ومنه أيضًا :

إِذَا أَنَا لَمْ أَدْفَعْ قَضَـاءً كَرِهْتُـه ... بِشَىءٍ سِوَى سُخْطِى لَه وتَـبَرُّمِى
فَصَبْرِى لَهُ مِنْ حُسْنِ مَعْرِفَتِى بِهِ ... كَمَـا أَنَّ رِضْوَانِـى بِـه مِـنْ تَكَرُّمِى

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل إن يزدجردالأثيم ابن سابور ذى الأكتاف ، لما وُلِد له ابنه بهرام جور ،

---

(١) المقرع : قابل المشورة .

(٢) الوجل : الخوف .

(٣) الأوطار ، مفردها وطر : وهو الحاجة والبغية .

(٤) الملتحد : الملجأ .

أخبره منجموه بقوة مولده ، وسعادة جدّه ، ووصول الملك إليه بعد شدة ومحنة وطول اغتراب ، وأنه ينشأ بين أمة نابية[1] ؛ ذات همم عليه ، وحلوم زكية[2] ، ونفوس أبية ، وبهم يصير الملك إليه ، فأجال يزدجرد فكره فى خصائص الأمم ومزاياها ، فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق التى وصف له المنجمون ، ووقع اختياره عليهم .

فكتب إلى النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر اللخمى[3] فاستحضره وأشخص إليه جماعة وافرة من رؤساء العرب وساداتها ، فوصلهم وبرهم وأخبرهم بما يريد من تمليك النعمان عليهم ، فأنعموا عليه بذلك ، فشرف النعمان وتوجه وملكه عليهم وعلى العرب وسلم إليه ابنه بهرام ، وأمره بكفالته ، فأخذه النعمان واسترضع له أربعة نسوة ، صحيحات الأجسام ، ذكيات الفهوم سنيات الأعراق وسريات الأخلاق ؛ امرأتين من العرب وامرأتين من الفرس، وأجرى عليهن ما يصلحهن ، وانكفأ ببهرام إلى بلاده فبنى له الخورنق[4]؛ لما اتفق عليه من طيب الهواء وفضيلة الماء ، فأرضع المرضعات بهرام أربعة أعوام ثم فصلنه ، وقد صار غلاما جفر السرعة[5] نشأته وشبابه .

ولما استكمل بهرام خمسة أعوام قال للنعمان : انظر فى تعليمى ما يحتاج الملوك إليه ، فحدث بينهما محاورة ، ليس هذا موضع ذكرها أودعناها كتابنا المسمى (درر الغرر) المضمن أنباء نجباء الأبناء ، فكتب النعمان إلى يزدجرد

---

(١) أى ذات شرف ورياسة .

(٢) الحلوم : مفردها حلم : وهو العقل .

(٣) النعمان الأكبر : ابن امرىء القيس بن عدى بن نصر بن الحارث بن عمرو بن لخم بن عدى بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب من قحطان ، ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق فى ستين سنة . قال السهيلى : الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنمار فى عشرين سنة ولم يرى بناء أعجب منه فخشى النعمان أن يبنى لغيره مثله ، فألقاه من أعلاه فقتله ففى ذلك يقول الشاعر :

جزانى جزاه الله شر جزائه   جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

البداية والنهاية (٢/١٧٩) .

(٤) الخورنق : قصر بظهر الحيرة بناه النعمان الأكبر ، كما تقدم . معجم البلدان (٤٤٦٢) .

(٥) أى متوسط ومعتدل فى نشأته .

يسأله أن ينفذ إلى ابنه رجالا من حكماء الفرس وفقهائهم ومعلمى كتابهم ، فأرسل إليه يزدجرد بحاجته منهم ، ثم إنَّ النعمان ضم إلى بهرام رجلا من علماء العرب وحكمائها ودهاتها ، كان ذا بصيرة بالسياسة وخبرة بكثير من اللغات وحفظ لأخبار الملوك وسيرتها ، ومعرفة بأيام العرب وغيرها ، وكان اسمه حلسا ، فأفاد بهرام كل واحد من معلميه ما عنده من العلم .

فلما استكمل من السن اثنتى عشرة سنة ؛ فاق معلميه كلهم ، واعترفوا بفضله عليهم ، واستغنائه عنهم ، فصرفهم النعمان مكرمين ، وكره بهرام مفارقة حلس الحكيم ؛ لكونه يجد عنده من المحاسن والآداب والسياسة والأخبار والدهاء ما لم يره مجتمعا فى غيره ، واستدعى النعمان من يزدجرد من يعلم ولده الرماية والفروسية وما يحتاج إليه المحارب ، فبعث إليه يزدجرد بمن أراد منهم ، فمكثوا عند النعمان ثلاث سنين ، فلما استولى على جميع ما عندهم من ذلك صرفهم مكرمين وأمسك حلسا لشغفه به .

ولما استوفى من السن خمس عشرة سنة ؛ استأذن النعمان الملك يزدجرد فى القدوم عليه بولده ، فأذن له فى ذلك ، فوفد النعمان على يزدجرد بابنه بهرام وأوفد معه رؤساء العرب وزعماءها ، فأحسن يزدجرد وفادتهم وأكرم نزلتهم، وأجزل صلة النعمان ، وضاعف تشريفه وسرحه وأمسك ابنه بهرام عنده ، واحتبس بهرام حلسا لعلوق نفسه به .

وكان يزدجرد فظاً غليظ القلب ، شديد الكبر غليظ الحجاب ، مجترئا على سفك الدماء ، واغتصاب الأموال ؛ ولذلك سمى الأثيم ، فعامل ابنه بهرام بالقسوة التى طبع عليها ، وأتعبه وكده واستعمله على مجلس شرابه ، فتبرم بهرام بما ناله من أبيه وعيل صبره وضاق ذرعه ، فشكا ذلك إلى حلس فرق حلس لشكواه، ثم أقبل عليه فقال له ما معناه : جلى الله كربك وأعلى كعبك ، وأطاب ذكرك فى قلوب الأمم وأفواهها ، وكب لعزك ملوك العرب والعجم لجباهها .

وقال له : إن أولى الناس بإمحاض النصيحة(١) ؛ من كان معروفا بها ،

---

(١) أى بإخلاص لا غش فيها .

ومندوبا لها ، ومدعوا إليها ، ومحضوضا عليها .

وإنه قيل : النصائح بشعة المبادئ حلوة العواقب ، فهى كالأدوية ؛ يسوء استعمالها ، ويسر مالها ، ويذم عبها[1] ، ويمدح غبها[2] .

وكان يقال : الأمين يصحب الملك باللزوم على الخدمة ، والمبالغة فى النصيحة ، والخائن يصحب الملك بحسن المداراة وإفراط التذلل .

وكان يقال : إنما يسعد النصحاء بمثله إذا كان مؤيدا بفضيلة العقل ، فإن لم يكن كذلك شقى به النصحاء وسعد به ذوو الملق ؛ وهذا لأن الناصح ينفق على من نصح له من عقله ، وبالعقل يدرك العقل .

وكان يقال : أشد اللؤم أن تضن بالنصح على من سمح لك بالثقة ، وأن تستر الصواب عمن هتك لك حجاب سره .

وكان يقال : أولى العقلاء النصحاء بقبولك منه وإقبالك عليه من كانت سعادتك شرطا فى سعادته وعلة لها ، ومن كنت معه بهذه المنزلة فسعيه لك سعى لنفسه ، وذبه عنك ذب عنه .

ثم قال حلس لبهرام : إنه قد ساءنى تبرم ابن الملك وضجره لما لقى من خدمة أبيه الملك ، وأنا أشير على ابن الملك بإظهار المسرة بما أظهر به التبرم والضجر ، إذ كان الملك قد استعمله على عمل لابد للعامل فيه من إظهار البشر والطلاقة ، وإن من صحب الملوك بما لا يوافقها تحركت عليه بالغضب ، ولاينبغى مع هذا أن يظهر من ذلك ما يبطن خلافه ، فإن الرياء ينصل[3] عن الطبع نصول الخضاب[4] عن الشعر ؛ ولكن ليتأمل ابن الملك القضية التى كرهها بعين العدل يظهر له حسنها، وذلك أن الملك استعمله على مجلس شرابه الذى هو جماع لذته ، وجالب طربه ومسرته وراحة نفسه من نصب التدبير

---

(١) جَرْعُها .

(٢) الغب : عاقبة الشيء كالمغَبَّة .

(٣) نصلت اللحية : خرجت من الخضاب .

(٤) الخضاب : ما يخضب به اللحية وغيرها ؛ أى ما تلون به ، وعادة يكون الخضاب بالحناء .

ومشقته ، ووكل إليه مع هذا حراسة مهجته ورضيه لها بحفظها فى مجالس خلوته ، ووثق بكفايته فى صون شرابه من بلية وآفة يقصده به أعداؤه من جهة الشراب ، أو خلل يدخله على عقله السكر والاضطراب ، وكيف يصلح أن يعدل عن الولد الحبيب النجيب بهذا العمل العلى قدره العظيم خطره ؟ أم كيف تطيب نفس الولد الفاضل أن يرى أباه صارفا هذا العمل إلى سواه ؟ فليصرف ابن الملك فكره إلى ما ذكرته له ؛ ليكون ما يظهره من الغبطة بهذه الخطة راجعا إلى عقد يوافقه ومعنى يطابقه ، ولا يتخلق من ذلك بما يتمنى رفضه ، ويبرم منه ما يستحب نقضه ، فينم عليه بما أسره توسم الأبصار(١) وتكهن الأفكار(٢) .

فإنه كان يقال : الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة ، ولا يخفى عن البصائر الباصرة .

وكان يقال : إنما ينبسط سلطان الرياء على السمع والبصر اللذين يدركان الشهادة دون الغيب ، فأما العقل فلا ينبسط سلطان الرياء عليه ؛ لأن الأول الآخر قد كاشفه بكثير من الغيب لاختصاصه إياه .

ثم قال حلس : قد فطن الدب على بلادته لرياء القرد ، فقال بهرام : أخبرنى عن ذلك .

فقال حلس : ذكروا أن دبا كان يسرح فى غيضة ذات أشجار مثمرة ، وكان فى تلك الغيضة قرود ، فكان الدب يرى قوة القرود على رقى الشجر والتطرف لأغصانها ، ويمكنها بذلك من اجتناء أطايب الثمرات ، فحدث نفسه بأن يصيد قردا منها فيكلفه أن يجتنى له الثمر ، فصعد شجرة وألقى نفسه منها ، والقردة تنظر إليه وجعل يتضرر ويتخبط طويلا ، ثم تماوت فخفت وفتح فمه وأخفى نَفَسَه ، واجتمع القردة لرؤيته ، فقال لها حازم منها : إنه لايبعد أن يكون هذا الدب متصنعا خادعا وإن الحزم أن يتجنب ويحذر منه ، فإن لم يكن بد من الدنو منه ، فهلم نجمع حطبا وندوره حوله ونضرم فيه نارا ، فإن كان متصنعا افتضح وإن كان ميتا فلا ضرر علينا فى احتراقه .

وأنه كان يقال : عدوك ضدك ، وحكم الضدين التنائى ، والتنافر ، والتباين

---

(١) أى حُسن وتبين الأبصار .

(٢) الادعاء بمعرفة الغيب .

، والتدابر .

وكان يقال : لا تطأ أرضا وطئها عدوك إلا على توق واحتراس ، وتوقى افتراس ، ولا يغرك خروجه منها وبعده عنها ، فربما رتب فيها شباكا ، ونصب لك بها أشراكا .

وكان يقال : لا تغش عدوك إلا متسلحا متحرزا متحفظا ، ولا يغرك منه استسلامه وإلقاؤه السلاح ، فما كل سلاح يدرك بالبصر ، وقد غرَّ الراهب اللص بمثل ذلك فتم له عليه ما أراد . فقالت القردة : أخبرنا عن ذلك .

فقال : ذكروا أن راهبا كان فاضلا من الرهبان وكان متبتلا فى قلاية[١] له بظاهر اللاذقية[٢] ، وكان شيخا فانياً قد نهكته العبادة ، وكان النصارى يخصونه بالصدقات فيقبلها ، ويعطيها أهل الفاقة[٣] لزهده فى الدنيا ، وأن لصا من اللصوص رأى كثرة ما يخص به الراهب من الصدقات ، فحدث نفسه بأن يتسور[٤] على قلايته ، وظن أنه سيصيب عنده كثيرا .

فتحيل ليلة من الليالى حتى تسور القلاية وحصل مع الراهب فى بيت تعبده، فوجده قائما يصلى والسراج يزهو فى البيت فصاح اللص بالراهب : فر أيها الشيخ قبل أن ألقى عنك رأسك ، فالتفت الراهب فرأى اللص ، وإذا هو شاب شديد البنية فى يده سيف مصلت ، فعلم أنه لا قبل له به ، فقطع صلاته وفر بين يدى اللص إلى ناحية من البيت فى حائطها طاق[٥] ، فأدخل الراهب رأسه فى الطاق ، ورد يديه إلى خلفه كما يصنع بالكتوف[٦] ، فلما رأى اللص أن الراهب قد استسلم وخبأ رأسه ألقى سيفه ووثب نحو الراهب ليقبض عليه ،

---

(١) القلاية : كلمة يونانية تعنى مسكن الأسقف والرهبان .

(٢) اللاذقية : مدينة فى سوريا على ساحل المتوسط وهى أيضاً ميناء . فتحها العرب قديماً . وهى من أعمال حمص وهى غربى جبلة وهى الآن من أعمال حلب . معجم البلدان (١٠٥٣٢) .

(٣) الفاقة : أهل الحاجة والفقر .

(٤) أى يصعد على الحائط .

(٥) نافذة .

(٦) الكتوف : الذى شدت يداه إلى خلف الكتفين .

فانخسف به ما تحته وسقط فى دهليز[1] القلاية سقوطاً أوهنه ، فمكث على حالته لا يجد محيصا[2] عن الموضع الذى حصل فيه ، حتى أصبح فدل الراهب عليه ، فأخذ وصلب ، وقد كان الراهب قد اتخذ فى طريق الطاق ثقبا وجعل عليه طبقا ينقلب بلولب إذا اعتمد عليه ، وغطاه ببعض فرش البيت ، فلما قصد إلى الطاق هاربا بين يدى اللص خطر من ذلك الثقب وتخطاه لمعرفته بموضعه ، فلم يضع رجله على الطبق، واللص لم يعرف ذلك ولا استعمل الحزم بالتحفظ ، بل عول على ما ظهر له من استسلام الراهب ولم يدر أنه أعد له سلاحا لا يدركه البصر.

فلما سمعت القردة المثل الذى ضربه لها حازمها ، توقفت عن الإقدام على الدب وانتشرت تجمع الحطب لإحراقه ، فأتى غر من القردة لم يكن حاضرا ذلك الموضع ولا سمع مقالة الحازم ، فدنا من الدب وأصغى بأذنه إلى أنف الدب ليسمع حس نفسه ، فقبض الدب عليه وعمد إلى عرق من عروق الخيزران[3] فربط طرفه فى وسط القرد وكلفه أن يصعد الشجرة فيجتنى له أطايب الثمر ويلقيها إليه ، والدب ممسك بالطرف الآخر من الخيزرانة ، فلبث بذلك بقية يومه ثم انصرف به الدب إلى غاره ، فأدخله فيه وسد بابه عليه بصخرة ، ولما أصبح غدا على القرد فأخرجه من الغار وانطلق به إلى الغيضة يجنى له الثمر عامة يومه[4] ، ثم راح به إلى الغار فسجنه به ، فلبث بذلك مدة والدب قد بلغ مناه ، والقرد فى أسوأ حال وأعظم مشقة ، يظل نهاره فى خدمة الدب ويبيت ليله فى سجنه .

وكان يقال : من تعرض لما لا يعنيه تورط فيما لا قِبَل له به ، وكان يقال : شهوات العاقل من وراء فكرته ، فإذا انبعثت له شهوة مرت بفكرته فنظر فى مبادئها وعواقبها ويدبر فيها بحكم الرأى ، وفكرة الأحمق من وراء شهوته فكلما

(١) الدهليز : كلمة فارسية تعنى المسلك الطويل الضيق بين الباب والدار .

(٢) مهرباً ومفراً .

(٣) الخيزران ، مفرد خيزرانة : وهو نبات كبير الحجم تستعمل عيدانه لصنع الكراسى أحياناً.

(٤) أى طوال يومه .

انبعثت له شهوة مرت نافذة لوجهها لا يصدها شئ . وكان يقال : إنما صار يسير المؤنة المتحملة للعدو شاقا ؛ لأن الأرواح تحتمل منها أضعاف ما تتحمل الأبدان، فيصير الأذى بها عاما ، وليس كذلك المؤن المتحملة للحبيب ؛ لأن الأرواح تتلذذ بها وتستخدم الأبدان لها.

قيل : ثم أن القرد تفكر فى حاله ، فظهر له أن نصيحته فى خدمة الدب تمنعه من الخلاص منه ، فندم على نصحه فى خدمته وعلم أنه لن ينجيه منه إلا الحيلة ، فطالت فكرته فى ذلك إلى أن اتجه له وجه الحيلة فيه .

وكان يقال : إذا كان المملوك ميت الشهوة ، بليد الفكرة ، رذل الهمة فهو سِلْمٌ لمالكه ، وإن لم يكن بهذه الصفات فإن له فيه شريكا هو أملك به من سيده ، وذلك أنه إذا كان متحرك الشهوة كان منقادا لطاعتها ، وإذا صحت فكرته أعملها فى طلب الراحة من النصب[١]، والخلاص من الأسر وإقامة الحجج فى الدفع عن نفسه ، وإذا سمت همته اتصف بالغضب والأنفة[٢] والحقد ، وتدبر بما يريد لا بما يريد سيده .

قيل : وكان مما عوّل القرد عليه من الخديعة للدب أن يتظاهر بضعف البصر، فصار يلقى إلى الدب من الثمر ما لاخير فيه ، فزجره الدب عن صنيعه فلم ينزجر وضربه فلم يرتدع ، فلما طال عصيانه عليه قال له : إنى قد سئمت من زجرك وضربك ، وقد حدثت نفسى بأكلك لأنه لم يبق لى فيك منتفع .

وكان يقال : إذا لم تجد من الخدمة إلا من أساء أدبه فاخدم نفسك ولا تستخدمه ؛ لأنه يحمل على قلبك من المشقة أضعاف ما تحمل على بدنك .

فقال له القرد : إنى لست على ما تصفنى به من سوء الأدب ولو قتلتنى لندمت كما ندم الطحان حين قتل حماره . فقال له الدب : أخبرنى عن ذلك .

فقال : حُكى أن طحانا كان له حمار يطحن به ، وكانت له زوجة سوء يحبها وهى تحب جارا لها ، وذلك الجار الذى تحبه يبغضها ويمتنع منها ، فرأى

---

(١) التعب والإعياء .

(٢) عزة النفس .

الطحان فى منامه قائلا يقول له : احتفر فى موضع كذا من مدار الطاحونة تجد كنزا ، فحدث امرأته برؤياه وأمرها بكتمانه .

وكان يقال : من زعم أنه يجد راحة فى إفشاء سره إلى غيره فيلتهم عقله؛ لأن مشقة الاستبداد بالسر وترك المشاركة فيه ، أقل من مشقة الحذر من انتشاره بسبب المشاركة فيه .

وكان يقال : أمران يسلبان الحر كمال الحرية وهما قبول البر[١] ، وإفشاء السر . وشرح هذا إن قبلت برّه فقد أوجبت على نفسك الخضوع له ، والإحسان يرق[٢] الإنسان ، وكذلك من أطلعته على سرك فإن حذرك من إفشائه يلزمك ذل التقية[٣] .

وكان يقال : المرأة مؤهلة لبيت تقمه ، وطعام ترمه ، وشبق تسكنه وتثير به، فَمَنْ أشركها فى أمره وأطلعها على سره فقد التحق بعالمها ، إذ ليس فى قواها الالتحاق بعالمه .

قيل : فلما حدث الطحان امرأته برؤياه ، أخبرت بها جارها الذى تهواه وتقربت بها من قلبه ، فواعدها أن يطرقا الموضع ليلاً ليتعاونا على حفره ، وفعلا ذلك ، فوجدا الكنز واستخرجاه فقال جار المرأة لها : كيف نصنع بهذا المال ؟ قالت : نقسمه نصفين بالسواء ، ينطلق كل واحد منّا بنصفه إلى منزله وتفارق أنت زوجتك ، وأحتال أنا فى فراق زوجى ، ثم تتزوجنى فإذا اجتمعنا على النكاح جمعنا المال فكان بأيدينا .

فقال لها جارها : أنا أخاف أن يطغيك الغنى فتنكحى غيرى ، وأنه كان يقال: الذهب فى المنزل كالشمس فى العالم . وكان يقال : من بلغ من اليسار[٤] ما فوق قدره تنكر لمعارفه ، وكان يقال : اليسار مفسدة للنساء لغلب شهواتهن على عقولهن ، وكان يقال : لا تسمح لولدك ولا لامرأتك ولالخادمك بما فوق الكفاية ، إن طاعتهم لك بقدر حاجتهم إليك .

---

(١) أى الإحسان .

(٢) يستعبد .

(٣) أى الصيانة والستر والحذر .

(٤) السعة من العيش والغنى .

ثم قال لها : بل الرأى أن يكون جملة المال عندى ؛ لتحرصى على التخلص من زوجك واللحاق بى ، فقالت له المرأة : إنى أخاف منك مثل الذى خفت منى ولست مسلمة إليك حظى من هذا المال ، فلا تحسدنى على حظى منه وقد آثرتك بالدلالة عليه ، وإنّه كان يقال : إنما صار العدل والإنصاف مشكوراً عليهما لفساد الزمان ؛ لأن الشكر إنما يجب لمن تفضل بحق هو له ، فأما من أعطى الحق أهله ؛ فهو محمود لا مشكور .

فلما سمع مقالتها دعاه البغى والشره والحذر من نميمتها عليه إلى قتلها ، فقتلها وألقاها فى موضع الكنز ، وبعثه الصبح فأعجله عن مواراتها ، واحتمل المال وخرج به ، ودخل الطحان على أثره ، فربط حماره فى المدار ، وصاح به فمشى خطوات ثم اعترض الحفير[1] والقتيل بين يديه فى مداره ، فوقف فضربه الطحان ضرباً شديداً والحمار يتلوم ولا يمكنه التقدم ، والطحان لا يدرى ما بين يديه ، فأخذ سكيناً ونخسه[2] نخسات كثيرة ، ثم استشاط[3] غضبه فطعنه بها على خاصرته[4] فمرت فيه السكين وسقط ميتاً . ولما انتشر الضوء رأى الطحان الحفير ووجد امرأته فيه قتيلا فاستخرجها فرأى آثار الكنز فاشتد أسفه على ذهاب الكنز وهلاك المرأة والحمار ، فقتل نفسه .

فلما سمع الدب مقالة القرد قال له : قد ظهر فيما ضربت من المثل عذر الحمار فما عذرك أنت ؟ فقال له القرد : بصرى ضعف وأخاف عليه أن يذهب بالجملة ، فإن رأيت أن تنظر فى صلاحه فذلك بيدك .

فقال الدب : ومن لى بصلاح بصرك فإن فيه صلاحى ؟ فقال القرد : إن الأطباء لكثير ، ولكن العاقل لا يستطب لألمه من لم يكن من عالمه ، وإن للقردة بهذه الأرض طبيباً تصفه بإجادة الطب والزهد فى متاع الدنيا ، وإنى لأستروح العافية من تلقائه وأستلوح[5] الفرج فى لقائه .

---

(١) الحفير : ما حفر من الأرض وهو القبر .

(٢) أى غرز السكين بجانبه .

(٣) أى اشتد واشتعل غضبه .

(٤) أى بطنه .

(٥) أى تبصر فيه .

فأجابه الدب إلى ما أراد ، فقصد به القرد قردا كان موصوفا بالخبث والدهاء، فلما بلغا إليه فر من الدب ، فقصد شجرة وقام الدب تحتها ، فقص عليه قصة غلامه ورغب إليه فى مداولته ، فقال له القرد الخبيث : دعه يطلع حتى أنظر إلى عينيه فأرخى له فى الخيزرانة ، فصعد يتأمل عينيه ويسأله عن خبره ، فقص عليه خبره مع الدب ، وسأله أن يفتح له باب المكيدة فى الخلاص من يده ، فقال له القرد الخبيث : إنى سأحمله على السهر ، فاحتل لنفسك بانتهاز الفرصة إذا نام وكن على حذر من أن يتناوم ليختبرك .

ثم أمره بالنزول ، فنزل ، وأقبل القرد الخبيث على الدب فقال له : إنه ينبغى أن أعرفك داء عبدك قبل أن أدلك على دوائه ، إذ يستحيل العلم بالدواء من الجاهل بالداء ، فاعلم أن القردة إنما صحت جسومها ، وقلت لحومها ، وتوقدت فطنها وفهومها ؛ لأنها وفرت على السهر دواعيها ، وجعلت ليلها حظا من مساعيها .

وإنه كان يقال : كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار .

وكان يقال : من لزم الرقاد حرم المراد .

وكان يقال : لا يصح أن يقال فى حد الجود أنه سماحة النفس بالنفس ، ولو صح هذا لكان أجود الأجواد من كثر نومه ؛ لأنه سمح بحياته التى لا يجد له كفاء ولا يصيب منها عوضاً .

ثم قال القرد الخبيث للدب : إنك لما أخرجت عبدك هذا عما اعتاد أدخلت عليه الفساد كما صُنِعَ بالطائر الذى أصيد لابنة الملك ، فقال له الدب : أخبرنى عن ذلك .

فقال القرد : ذكروا أن ملكاً من ملوك اليونانيين كانت له ابنة تكرم عليه جدا، فهاجت بها المرة السوداء ، فأدخلت عليها أنواعاً من الأمراض ، وبلغ بها الأمر إلى الامتناع من الغذاء والدواء ، فأشار طبيبها بأن تنقل إلى ارتفاع تشرف منه على بستان مونق(١) وماء جار ، ففعل ذلك بها ، فرأت فى اليوم الذى نقلت فيه إلى ذلك العلو طائراً فيه من كل لون قد نزل على دالية(٢) ، فأكل

---

(١) أى مزهر جميل .

(٢) شجرة الكرم .

من عنبها ، ثم غرد تغريداً عجيباً بأنواع من النغم المطربة ، فارتاحت الجارية لما رأت وسمعت من الطائر واستدعت الغذاء .

وكان يقال : أفضل النغم المطربة ما سمع من الصورة الحسنة ، يحرك الشهوة والطرب جميعاً ، فتتظافر القوتان وتفعلان فعل الأدوية المركبة ، فإنها أنجح من الأدوية المفردة وأشد فعلا.

قيل : ثم إن ذلك الطائر أسرع الذهاب ولم يعد يومه ذلك ، فظهر على ابنة الملك القلق لغيبته ، ولما كان الغد عاود الطائر الدالية فى مثل وقته بالأمس ، فسرت ابنة الملك بعودته ، فاستبشرت وارتاحت وأكلت وشربت ، وانصرف الطائر فى يومه كما انصرف فى أمسه ، فعاوذها القلق لغيبته ، وبلغ الملك خبرها فى ذلك ، فأمر باصطياد الطائر فاصطيد وجعل فى قفص ، وأتحف ابنته به فاشتد سرورها ، واغتدت وتداوت ، ورأى الطبيب انتعاش قوامها فعالجها وطمع فى سلامتها ، ولم يعلم بأمرها مع الطائر ، وأن ذلك الطائر لبث عندها أياما لا يصوت ولا يطعم شيئا ، وأخذ حسنه فى التغيير ، فعادت الجارية إلى أسوأ أحوالها ، وجعلت تذوب لما نالها من الاهتمام بأمر الطائر مضافا إلى مرضها ، وعلم بذلك أبوها فندم على اصطياد الطائر .

وكان يقال : لا تكن تلميذاً لمن يبادر إلى الأجوبة عن المسائل قبل أن يتدبرها ويتفكر فيما يتفرع عنها ، ويعد لدفع ما يمكن أن يعترض به على جوابه، ويلزمه خصمه من المناقضه لأصوله ، كما إنك لا تستشير الغر الذى لا يتجاوز مبادئ الآراء إلى عواقبها ، ولكن تلمذ[1] لمن يتفكر فى الآواخر قبل أن يجيب عن الأوائل، كما تشاور المحنك المدبر لبطون الأمور وظهورها المطلع على مبادئها وعواقبها .

قيل : فلما علم الطبيب ما انتقلت حال الجارية إليه من الفساد ، عرف أن ذلك لعارض طرأ عليها ، فبحث عنه فاطلع على قصتها مع الطائر ، فأشار بأن تُنصب شباك محيطة بالبستان علواً وسفلاً ، فصنع ذلك على ما أشار ، فأطلق الطائر فى البستان ، فلما رجع الطائر إلى ما اعتاده وائتلفه ، راجعته صحته

---

(١) أى كن تلميذاً .

وحسنه وألف تغريده ، فصلحت بذلك الجارية ، ونقهت[١] من مرضها .

قيل : فلما قضى القرد الخبيث ما ضربه له من المثل ، قال له الدب : قد سمعت مقالتك ووعيت حكمتك ، فمُرني بما فيه مصلحة عبدى هذا ؛ أطع أمرك، فقال له القرد : إنى آمرك أن تتأخر فى مسرحك[٢] جزءاً من الليل ، فإن ذلك زيادة فى عمرك وطعمتك ونعمتك ، ومهيج لنشاطك وانبساطك ، ومضاعف للذة منامك ، ومساعف لمصلحة غلامك ، فشكره الدب على نصحه ، وانطلق بعبده إلى مسرحه ، فاجتنى له فى نهاره ذلك أخابث الثمر ، فلما جاء الليل أظهر القرد نشاطاً ومرحاً ، واجتنى فى تلك الليلة أضعاف ما يجتنيه ثمرات طيبات ، فلبث بذلك صدراً من الليل ، ثم انكفأ[٣] به الدب إلى الغار فسجنه فيه وغدا عليه كعادته .

ولبث القرد أياماً يتظاهر فيها إذا أَجَنَّ الليل بقوة البصر ، ويجتنى للدب أطايب الثمر ، على حال تدريج ، والدب لم تسكن نفسه إلى الثقة بالقرد ، بل يتكهن عليه أنه متصنع خادع ، وكلما زاد القرد فى تصنعه زاد الدب فى الريبة به ، وإنَّهُ ليلة من الليالى أراد الانصراف إلى مأواه فجعل القرد يماطله ويقول : هاهنا ثمرات طيبات ، فيتأخر الدب ، لما طبع عليه من الشره والنهمة[٤] وكانت ليلة مقمرة ، فحدث الدب نفسه بأن يتناوم ليختبر القرد ، ويمتحن ظنه به ، فتناوم وجعل يغط[٥] ، فما كذب أن وثب القرد هارباً فجذبه الدب بالخيزرانة جذبة شديدة ، فانقطع ظهره منها ومات .

قيل : ولما بلغ الحكيم حلس الأعرابى إلى غاية هذا المثل الذى ضربه لبهرام أمسك عن القول ، فقال له بهرام : ما أبهجنى بقربك وأقر عينى بما تفيدنى من حكمك ، وتضرب لى من أمثالك ، وتجلوه على من ملحك ، ولئن

---

(١) أى شفيت مع ضعف .

(٢) المسرح : المرعى .

(٣) رجع .

(٤) أى كثرة الأكل .

(٥) أى نخر فى نومه واستغرق فيه .

بقيت إلى أن تدول لى دولة لأجعلنك أول داخل على وآخر خارج عنى ، وسأروض نفسى بآرائك مستعينا بالله ، فسجد حلس ودعا له بنجح الأمل .

ثم إن بهرام جور شهد والده ليلة من ليالى سروره وقد نضر النور بين يديه، فكان مثل الزرابى المخملة(١) ، والتيجان المرصعة(٢) ، فتذكر بهرام بين يديه أيامه عند النعمان ، وانتجاعه الرياض الأنيقة ، وشربه فيها على الأزاهر المطلولة(٣) ، إلى ما كان ينعم به من مباكرة الوحوش فى معانها(٤) ومراعيها ، والتفكه بطرادها واصطيادها ، فأطرق واستولت عليه الفكرة ، وعبس وتنفس الصعداء ، وأبوه يزدجرد يسارقه النظر ، ثم إنه استفاق فنظر إلى أبيه وعلم أنه كان بمرأى منه ، فأسقط فى يده ولم تمض إلا ساعة حتى قبض الملك بشره ونكس رأسه ، فنهض كل من بحضرته من ندمائه وسماره ، وكانت تلك عادة ملوك الفرس ، إذا عبس الملك منهم أو أطرق لم يبق بحضرته أحد إلا استوى قائما على حال خشية وسكون .

وكان ليزدجرد مضحك طريف اللسان ، لطيف الفطنة ، حسن الاختراع، جيد البديهة حلو النادرة ، فحضر ذلك المقام وفطن للأمر الذى تنكر له الملك ، وأن ذلك لما كان من عبوس ولده وإطراقه فى مجلس المسرة ، فحدث ذلك المضحك نفسه بأن يحسن إلى بهرام ويصطنع عنده يدا ، فتحيل له بحيلة يخلصه بها من غضب أبيه ، وبينما هو يناجى نفسه بالحيلة فى ذلك رفع الملك رأسه إلى ذلك المضحك ، فنظر إليه كأنه يحركه على أن يصطنع شيئاً فيه سلوة له ، فسجد المضحك ثم جثى على ركبتيه وقال : إن العبد يستأذن الملك فى أن يخبره عن نفسه بخبر عجيب ، فنظر إليه بهرام كالإذن له .

فقال المضحك : إن العبد كان فى حداثة سنه كلفاً بالنساء مفرطا فى الشبق إليهن ، إلا أنه كان ملولاً لا يلبث على محبة من أحب منهنّ ، وكان كلما استحسن امرأة هام بها ، وتهالك فى حبها .

---

(١) الزرابى ، مفردها الزربى : وهو ما يبسط ويتكأ عليه . المخملة : أى اللينة كالقطيفة .

(٢) أى التيجان التى نظمت فيها الجواهر .

(٣) أى الأوانى التى أصابها الطلّ وهو الندى .

(٤) أى وديانها ومنازلها .

وكان يقال : من أتْبَعَ لحظة هواه أدحضه وأهواه .

وكان يقال : كن من عينك على حذر ؛ فرب جموح حين جناه طموح عين .

وكان يقال : ما أحرى الملول بأن يحرم المأمول .

وكان يقال : السآمة[١] من أخلاق العامة وليست من أخلاق السامة[٢] .

وكان يقال : التنقل من حلة إلى حلة كالتنقل من ملة إلى ملة .

ثم قال المضحك : وإن العبد دخل بلاد السند[٣] فبينما هو يطوف ببعض مدنهم رأى امرأة لم ير قبلها فى حسن الصورة ، وامتداد القامة ، ورشاقة الحركات، ولباقة الإشارات ، وسحر الطرف ، وتألق الظرف ، فتبعها العبد وهو لا يرى مواطئ قدميه من الدهش حتى بلغت منزلها فدخلته ، ولزم العبد باب منزلها ليلا ونهارا ، فأرسلت تستعفيه من لزوم بابها وتحذره سطوة أهلها ، فشكا العبد إلى رسولها ما يلقاه من الشغف ، وأعلم الرسول أنه لا معدل له عن بابها، وأنه مستميت فى طلابها ، فلهيت عن العبد مدة ، ثم أعادت الرسول إليه ، فرده العبد إليها بمثل كلامه الأول ، فأرسلتَ إلى العبد تقول له : إنى أظن بك الملل والغدر ، ولولا ذلك لأسرعت إلى مساعدتك وإنى متزوجتك بشرط الوفاء ، فإن غدرت أهلكتك بعد أن أنكل بك نكالا يضرب به المثل ، فإن التزمت هذا الشرط فأقدم وإلا فانج بنفسك قبل أن يتعذر عليك الخلاص .

وكان يقال : أربعة ترفع الرحمة عنهم إذا نزل بهم المكروه : من كذب طبيبه فيما يصف له من دائه ، ومن تعاطى ما لا يستقل بأعبائه ، ومن بدد ماله فى لذاته، ومن أقدم على ما حذر من آفاته .

وكان يقال : من بصرك فقد نصرك ، ومن وعظك فقد أيقظك .

وكان يقال : من أوضح وبين فقد نصح وزين ، ومن حذر وبصر فما غدر

---

(١) الملل .

(٢) السامة : الحيوانات والماشية .

(٣) السند : بلاد بين بلاد الهند وقرمان وسجستان فتحت فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى . ومذهب أهلها الغالب عليها مذهب أبى حنيفة النعمان . معجم البلدان (٦٦٨٣) .

ولا قصر .

قال المضحك: فالتزم العبد الشرط وأعطى من نفسه المواثيق على الوفاء ، فتزوج العبد المرأة وبلغ منها أمنيته ، فلبث معها مدة ، فزارتها تِرْب[1] لها فلمحها العبد فأعجبته ، ومالت نفسه إليها ، فتبعها العبد إلى منزلها وجعل يراسلها ويلازم بابها ، فاقتربت منه وشكته إلى امرأته ، فعاتبته امرأته على ذلك وزجرته، وأذكرته العهود ونهته ، فازداد لجاجا[2] ، فلما رأت ذلك منه سحرته فصار أسود اللون مشوه الوجه ، وجعلت تستخدمه في كل مهنة ، فما شغله ما هو فيه عن أن هوى أمة سوداء، فجعل يتبعها في تصرفها ويتعلق بها ويؤذيها ، فلما كثر ذلك على الأمة شكته إلى امرأته التي سحرته .

وكان يقال : إنما كان المطبوع أملك به من أدب المؤدب ؛ لأن الطبع أصلي وتمده القوى الناشئة معه ، فهو أملك بالنفس التي هي محله لاستيطانه إياها وكثرة أعوانه بها ، والأدب طارئ على المحل غريب به .

وكان يقال : أضل المؤدبين سعياً من رام من المتأدب أن يعاونه على نفي طبعه عنه ، وكيف وطبعه أولى به وأقرب إليه وآثر عنده من مؤدبه ؟ لكن المؤدب الماهر من طالب المتأدب بستر المذموم من طباعه وتعميته والتورية عنه .

قال المضحك : فلما بلغ امرأة العبد ماكان منه ، اشتد غضبها عليه ، ثم سحرته فصار حمارا ، فجعلت تكريه[3] ممن يستعمله في أشق الأعمال ، ويستحمله أثقل الأحمال ، فلبث بذلك مدة طويلة ولم يشغله ما هو فيه من البلاء عن أن يهوى أتانا[4] ، واشتد شغفه بها ، وكان كلما رآها نهق وطلبها أشد الطلب ويرد عنها بالضرب ، فيلقى من ذلك بلاء شديدا ، واتفق أن امرأة العبد الذي سحرته زارت ابنة ملك تلك المدينة فكانت معها في علوٍ لها تشرف منه

(١) صديقة .

(٢) إلحاحاً .

(٣) تؤجِّره .

(٤) أنثى الحمار .

على ما حوله ، وكان العبد فى ذلك اليوم قد استأجره شيخ كبير السن ضعيف البدن ، فاحتمل عليه أوانى فخار فى جولقين[1] ، ومر به على قصر ابنة الملك ، فرأى عند القصر تلك الأتان التى يهواها ، فما ملك نفسه أن نهق وقصدها ، وفعل بها ما تفعل الحمير عند ذلك ، وجعل الناس يضربونه من كل جانب والفخار يتساقط على ظهره ، والشيخ صاحب الفخار يصيح ويستغيث ، وجعل الصبيان والسفلة يغطغطون[2] من كل جهة ، والأتان فارة بين يديه ترمحه وهو يطلبها على تلك الحال .

فرأت ابنة الملك ذلك كله فأعجبها وأضحكها ، فقالت لها امرأة العبد التى سحرته : يا ابنة الملك ألا أخبرك بأعجب مما رأيت من هذا الحمار ؟ قالت لها : بلى فافعلى ، فقالت : إنه زوجى ، وقصت عليها خبر العبد ، فاشتد تعجبها مما سمعته وسرت به ، ثم سألتها أن تبطل سحر العبد وتخلى سبيله ، فأجابتها إلى ذلك فأبطلت السحر عن العبد فسار بشراً سوياً ولم يكن له هم إلا الفرار من بلاد السند .

فلما انتهى المضحك إلى هذا المبلغ سكت ، وقد كان الملك يزدجرد اشتد ضحكه ؛ لما سمعه من حديث المضحك ؛ ولما شاهده من حركاته فى وقت حديثه، فلما سكن ضحكه وعاوده الوقار والأبهة ، أقبل على المضحك وقد اكفهر[3] له فقال : ويحك ما حملك على أن تكذب هذه الكذبة الشنعاء ، كأنك ما علمت أنا نحظر الكذب على رعيتنا ونعاقبها عليه ، وقد قالت الحكماء : الكذب كالسموم التى تقتل إذا استعملت مفردة ، وقد تدخل فى تراكيب الأدوية فينتفع بها، فلا ينبغى للملك أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله فى المصالح ، كالكذب فى كيد الأعداء ، وفى تآلف البعداء ، كما لا ينبغى أن يطلق ملك تلك السموم التى ذكرناها إلا للمأمونين عليها المانعين لها من المفسدين .

---

(١) الجولق : كلمة فارسية وهو العِدْل ، ما يحمل عليه من صوف وشعر .
(٢) أى يصدرون أصواتاً ماجنة تقارب أصوات القطا .
(٣) أى عبس .

فقال المضحك : أيها الملك السعيد إن هذا مثل تضمن من الحكم ما يعود بمصلحة المرتاض به[1] ، والذى حملنى على ذكره أمر يلزم ستره عن غير الملك .

فأشار الملك إلى جلسائه ، فقاموا فخرجوا عن مجلسه ، ثم قال للمضحك : هات ما عندك .

فقال المضحك : إن عبد الملك يخبره أن ولده الفاضل بهرام عاشق .

فقال الملك : لمن ؟ قال : لابنة الأصبهيد .

فقال الملك : لقد كان من بهرام فى هذه الليلة ما يدل على صدقك ولا لوم على ولدنا فى ذلك ، إذ لم يضع من نفسه بمحبة ابنة حافظ ملكنا وسيد أوليائنا، وسيبلغ ولدنا أمنيته ويُحْسَنُ إليه باطلاعنا على أمره ، فاكتم ذلك حتى ينفذ أمرنا فيه .

ثم إن يزدجرد أذن لندمائه ، وسماره ، ومطربيه ، وولده فعادوا إلى مجلسهم وأخذوا فيما كانوا فيه ، ورجع إلى يزدجرد سروره وطربه إلى أن انقضى مجلسه وخرج القوم من عنده ، وتبع المضحك بهرام وأخبره بالخبر على وجهه فشكر له ووصله، ثم إن يزدجرد أنكح ابنه بهرام ابنة الأصبهيد ، ولم يزل بهرام يروض نفسه على الرضى بخدمة أبيه حتى انقادت لما أراد منها ، فلبث بذلك إلى أن قدم أخ لقيصر على يزدجرد ساعيا فى الصلح والهدنة والموادعة ، فأكبر يزدجرد قصده، وعرف له فضله وأحسن نزله .

فلما رأى بهرام منزلة أخى قيصر عند يزدجرد استشفع به عنده فى رده إلى النعمان ، فشفعه وأذن لبهرام ، فتحول إلى بلاد العرب فكان فيها على ما أحب ، إلى أن هلك أبوه وورث ملكه .

قال محمد عفا الله عنه : هذه خاتمة سلوانة الرضى ، وقد عَنَّ لنا أن نذكر ما تكمل به بهجتها ، وهو الإخبار عن مهلك يزدجرد وما أحدث رعيته بعده

---

(١) أى المقتدى به .

وكيفية مصير الملك إلى ابنه بهرام ، وذلك مما ذكر المعتنون بأخبار ملوك الفرس ، أن يزدجرد لما كثر عسفه[١] ، واشتد عتوه[٢] ، وعدل عما نهجه سلفه من العدل والرأفة ، اجتمع وجوه رعيته من ذوى الصلاح عندهم فدعوا الله على يزدجرد وسألوه معافاتهم منه ، فرحم الله ضراعتهم واستجاب دعاءهم .

وبينما يزدجرد جالسا فى منتزه له دخل عليه حاجبه ، فأخبره أن فرسا متوحشا عريانا قد جمع محاسن صفات الخيل ، فهو ذو صورة لم ير الراؤن مثلها، جاء يشتد عدوا حتى قام بباب الملك ، وأن الناس تهيبوه فلم يجترىء أحد على أن يدنو منه ، وأن الخيل قد نافرته فما تقدم عليه ، فاستخف يزدجرد ما سمعه من وصف الفرس ، فنهض نحوه ، فلما عاينه ملىء إعجابا به ودنا منه ، فخضع له الفرس فمسح يزدجرد بناصيته ووجهه ، وقبض بناصيته ، وأمر بإسراجه وإلجامه ، فألجم وأسرج .

فيقال : إن يزدجرد استدار بالفرس ومسح كفله[٣] فرمحه الفرس رمحة خر منها ميتا ، وملأ الفرس فروعه عدوا ، فما عرف إلى أين توجه ، ويقال : بل ركبه يزدجرد وحركه فسبق الأبصار حتى أتى البحر فاقتحم به والله أعلم أى ذلك كان.

ولما رأى الفُرس أن الله قد أراحهم منه ، أجمعوا على أن يخرجوا الملك من ولد يزدجرد خوفا من أن يسن فيهم مثل سنة أبيه ، فملكوا رجلا من أبناء ملوكهم السالفة يقال له : كسرى ، وكان مرضيا عندهم ، فمحا ما شرعه يزدجرد من المظالم وأعفى الفرس من جميع ما كرهوه ، فعرف بركة رأيهم فى تمليكه .

وانتهى الخبر إلى النعمان فأطلع عليه بهرام وأخبره أنه عاضده وناصره وباذل نفسه وماله فى مرضاته ، فشكر له بهرام وأمره بشن الغارات على أطراف بلاد الفرس مع الكف عن سفك الدماء ، فأمر النعمان العرب بفعل ذلك

---

(١) ظلمه .

(٢) فساده وقسوته .

(٣) عجزه ومؤخرته .

ففعلوه ، فاشتد ضررهم وأرسلوا إلى النعمان يستعفونه ويسألونه العود إلى إحسان المجاورة ، فلما انتهى الرسل إلى النعمان قال لهم : إنما أنا خادم الملك بهرام أفعل ما أمرنى به فاذهبوا إليه ، فذهبوا إليه فلما عاينوه ملأ عيونهم جمالا وصدورهم جلالا ، فخروا له ساجدين وسألوه العفو والصفح ، فأجمل خطابهم وبسط آمالهم ، وأمرهم أن يبلغوا من وراءهم أنه حسن الرأى فيهم مؤمل لإصلاح شأنهم ، وأنه متوجه إليهم ليتولى إخبارهم عن نفسه وإقامة الحجة عليهم، فليتأهبوا لذلك .

ثم صرف الرسل مكرمين وأمر النعمان فكتب له عشر كتائب فى كل كتيبة ألف فارس من أنجاد[1] العرب ، ثم سار فيهم ، وسار النعمان بين يديه فى جيش كثيف ، فلم يكن عند الفرس لهم مدافع حتى انتهوا إلى دار الملك ، فنزلوا بظاهرها، فخرج إليه زعماء الفرس وحفظة دينهم ، ونُصب لبهرام كرسى فجلس عليه ، وقام النعمان بين يديه ، وتقدم إليه القوم فسجدوا له وقاموا لديه ، فأذن لهم فى الكلام فتكلم رئيس الموابذة[2] فحمد الله وذكر رأفته بخلقه ، ثم ذكر ما سار به يزدجرد من الجور وما فعل الله به ، ثم أتبع ذلك بذكر كراهة الفرس لتمليك من ولده يزدجرد ؛ لما يتخوفونه من سلوك سبيل والده ولا سيما وقد نشأ بين الأعراب الذين يصلحون جسومهم بإخراب الأرض ، وسأله أن يعفى الناس مما كرهوه ؛ فإنهم لا يملكونه طائعين ولا يقصرون فى دفاعه عن ذلك بكل ما أمكنهم .

فلما قضى رئيس الموابذة كلامه ، تكلم بهرام فحمد الله سبحانه وشكر نعمه عنده ، وصدق رئيس الموابذة فيما نسب إليه يزدجرد من الجور والعسف ، ثم اتبع ذلك بذكر ما كان يتمناه من مصير الملك إليه ؛ ليزيل رسوم الجور ويشد قواعد الحق ، ويذيق الرعية من حلاوة رأفته وإحسانه أضعاف ما أذاقهم أبوه من غلظته وإساءته .

ثم أعلمهم أنه لا يترك تراث أبيه ولا يألو جهداً فى تحصيله ، وأنه مع ذلك يدعوهم إلى أن يضعوا تاج الملك وزينته بين أسدين ضاريين ويحضر هو

---

(١) أنجاد ، مفردها نجد : وهو الشجاع السريع الإجابة إلى ما دعى إليه .

(٢) الموابذة ، مفردها المؤبَذ : وهو قاضى المجوس .

وكسرى المتغلب على ملك أبيه ، فمن أخذ التاج والزينة من بين الأسدين ؛ فهو بالملك أولى.

وذكر لهم أنه إنما يفعل ذلك رأفة برعيته ، وصونا لهم عن مقاومته ودفاعه، وثقة بنصر الله وعونه لما يعلمه من حسن طويته وخلوص نيته ، ورغبته فى إصلاح الأرض وأهلها .

فرضى زعماء الفرس بما بذله بهرام من نفسه ورجوا الراحة منه بذلك من غير مشقة تنالهم فى دفعه ، وانقلبوا عنه متعجبين من جماله وكماله وفصاحته وأبهته .

ثم عمدوا لأسدين ضاريين فجوعوهما ، وأخرجوهما إلى ظاهر المدينة فى قفصين من حديد ، وفى عنق كل واحد منهما سلسلة فى طرفها وتد من الحديد ، فضربوا الوتدين فى جهتين مختلفتين وجعلوا بينهما بقدر ما إذا خرج كل واحد من الأسدين فقصد الآخر بلغ إليه ، وجعلوا تاج الملك وزينته بينهما ، وبحيث يمكن كل واحد من الأسدين الوصول إليهما والذب عنهما ، وفتحوا القفصين عن الأسدين فخرجا ، وقد اجتمعت أمة عظيمة من الفرس واجتمع العرب فقاموا بإزائهم ، فخرج بهرام من قبته وقد شد وسطه بمنطقة(١) ، وجمع ذيوله إليها ، فأقام بإزاء الأسدين بين الصفوف ونادى كسرى : أن اخرج أيها المتوثب على ملكنا المتغلب على تراثنا ، فخذ تاج الملك الذى انتزعته من أهله .

فأجابه كسرى إنك أولى بالتقدم على ما أعطيت من نفسك ؛ لأنك الداعى إليه المتبرع له ، ثم إنك تطلب الملك بوراثة وأنا غاصب ، فدنا بهرام من الأسدين ولا سلاح معه ، فلما رأى رئيس الموابذة أن بهرام قد عزم على فعل ما بذل من نفسه، ناداه : يا بهرام إنك مستميت ولا إثم علينا فيك ، فقال بهرام : أجل أنا فعلت ذلك بنفسى ؛ ولكن لرأفتى بكم ولابد من فعله ، فقال له موبذان : إن كنت لابد فاعلاً فبء إلى الله بذنوبك وتب إلى الله واستعن .

فذكر بهرام ذنوبه وتاب إلى الله منها وسأله العون ، ثم دنا من الأسدين فقصده الأسد ، فلما قاربه راغ عنه بهرام روغة ، ثم وثب من الأرض ، فإذا

---

(١) النطاق وهو ما يشد به الوسط .

هو على ظهر الأسد ، فضم الأسد بفخذيه ضمة تبلد لها الأسد وفرج بين قوائمه وثبت مكانه يلهث ، وقصده الأسد الآخر فانتهى إليه حتى ألصق رأسه برأس الأسد الذى تحته، ولم تمكنه السلسلة من زيادة التقدم ، فقبض بهرام على أذنيه ، وجعل يضرب برأسه رأس الأسد الذى تحته حتى سقطا جميعا ميتين ، فقام بهرام قائما على قدميه وحمد الله على صونه وعونه وأزال ذيوله من منطقه ، وتناول تاج الملك فوضعه على رأسه ، فناداه كسرى الذى كان الفرس ملّكوه ليُهَنّ بهرام الملك بن الملك ما أعطاه الله من ميراث سلفه ، فكلنا له سامع مطيع، ثم ارتفعت أصوات الفرس بالدعاء له ، وتقدم إليه موبذان موبذ فأخذ بيده ، وأجلسه على سرير ملكه ، وشد عليه زينة الملك ، وباء[1] له بالطاعة وتتابع زعماء الفرس على ذلك .

وركب بهرام فدخل المدينة ونزل بقصر أبيه ، وفرق الأموال فى ذوى الحاجات وأهل النجدة ، وحبا النعمان وشرّفه وتوّجه ، وأجاز العرب الذين صحبوه بأسرهم على أقدارهم ، ثم إنه وفى لرعيته بمواعيد عدله وإحسانه ، ولم يزل محمودا فيهم حتى هلك ، وقد دون الفرس له أخبارا عجيبة أودعنا منها خبرين نادرين كتابنا المسمى (درر أنباء نجباء الأبناء) .

وبعد ؛ فالحمد لله بما هو أهله وصلى الله على محمد وأهله .

---

(١) أى أقر واعترف .

السلوانة الخامسة



سلوانة الزهد

قال ربنا تقدس اسمه مخاطبا أحلم من استخلفه فى أرضه ، وأعلم من كلفه ما يرتضيه ، الذى كان عاضده على ما يستكفيه وعاصمه فيما يبديه ويخفيه ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] . هذا بعد أن خيره أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا ، فاختار فقر الملك على غنى الملك ، وأنشدوا فى ذلك :

وقَالَ جبْرائيلُ عَنْ رَبِّهِ ... خُيِّرْتَ فَاخْتَرْ يَا دَلِيلَ الهُدَى
نُبُوَّةٌ فِى حَالِ عَبْدِيَّةٍ ... تَحْوِى بها القَدَحَ المُعَلَّى غَدَا
أَوْ حَالَ تَمْلِيكٍ بِخَيْرِ العِدَى ... بَيْنَ يَدَيْهِ صعقاً سُجَّداً
يَتْبَعُكَ الأَطْوَادُ مِنْ بَعْدِ مَا ... يُعِيدُهَا مُبْدِئُهَا عَسْجَداً[1]
فَاخْتَارَ مَا يَحْظَى بِهِ آجِلاً ... لِلَّهِ أَهْدَى وَمَا أَسْعَدَا

خبر نبوى فى زهد الملوك

من حديث ابن مسعود رحمه الله قال : ((إن ملكاً ممن كان قبلكم بينما هو فى ملكه أدركه الخوف من الله سبحانه ، قال : فترك ملكه وخرج حتى أتى النيل فكان على شاطئه يضرب اللبن ؛ يعنى الطوب ويقتات من ذلك ، فسمع الملك الذى كان فى أرضه بخبره فأرسل يقول له : كن بمكانك حتى ألحق بك ، وترك الآخر ملكه ولحق به فكان أمرهما واحدا إلى أن هلكا)) . قال عبد الله بن مسعود : لو كنتُ برملة مصر لأريتكم قبريهما بما نعته لنا رسول الله ﷺ .

ورويناه بلفظ آخر وهو أن عبد الله بن مسعود قال : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ فِى مَوْكِبِه، تَذَكَّر فَعَلِمَ أَنْ مَا هُوَ فِيه مُنْقَطِعٌ ، وَأَنَّهُ قَدْ شَغَلَهُ عَنْ عِبَادَةِ الله تَعَالى ، فَانْسَابَ مِنْ قَصره لَيْلاً وصَارَ إلى مَمْلَكَةِ غَيْرِهِ ، فَأَتَى سَاحِلَ البَحْرِ يَضْرِبُ اللَّبِن وَيَغْتَذِى مِنْ ذَلِكَ ، فَبلغَ المَلِكَ الذِى كَانَ فِى مَمْلَكَتِه عِبَادَته فَرَكِبَ إليه فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِه فَقَالَ لَهُ : أَنَا فُلاَن صَاحِبِ مَمْلَكَةِ كَذَا ، علمْتُ أن ما كنت فيه منقطعا ، وأنه قد شغلنى عن عبادة ربى ، فقال له : ما أنت بما صنعت بأحق

(١) الأطواد ، مفردها الطود : وهو الجبل . العسجد : الثمين من الجواهر وهو الذهب .

منى ، ثم خلى سبيل ملكه ، وتبعه فكانـا يعبدان اللـه عز وجل وسألاه أن يميتهمـا جميعا». قال عبد الله بن مسعود : لَوْ كُنْتُ بِمصر لأَرَيْتُكُمْ قَبْرِيهما بِالنَّعْتِ الَّذِى نَعَتَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ .

قال المؤلف : وفيه لفظ غير هذا لم أروه .

منظوم ومنثور من الحكم الزهدية

روى أن سليمان بن عبد الملك(1) قال لعمر بن عبد العزيز(2) رضي الله عنه حين أعجبه ما صار إليه الملك : يا عمر كيف ترى ما نحن فيه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا سرور لولا أنه غرور ، ونعيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هلك، وفرح لو لم يعقبه ترح(3) ، ولذات لو لم تقرن بآفات ، وكرامة لو صحبتها سلامة .

فبكى سليمان حتى اخْضَلَّتْ(4) لحيته ، ومما قلت فى ذلك :

يا مُتْعَباً كَدُّهُ الحِرْصُ ... فى الوُصُول وكَادَهُ
لَوْ حُزْتَ مَا حَازَ كِسْرَى ... ومَا حَوَى وأَفَادَهُ
مَا كُنْتَ إلاَّ مُعَنًّى ... ومُغْدَمًا بالزِّيَادَةِ
لَمْ يَصْفُ فى الأَرْض عَيْشٌ ... إلاَّ لأهْلِ الإرْدَاةِ
فَرُضْ عَلَى الزُّهْدِ نَفْساً ... فَإِنَّمَا الزُّهْدُ

---

(1) سليمان بن عبد الملك : ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، الخليفة أبو أيوب القرشى الأموى ، بويع بعد أخيه الوليد سنة (٧٦هـ) . وكان له دار كبيرة مكان طهارة جيرون ، وأخرى أنشأها للخلافة بدرب محرز ، وعمل لها قبة شاهقة صفراء وكان ديناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو ، يقال : نشأ بالبادية . مات بذات الجنب ، ثم كفن فى عاشر صفر سنة (٩٩هـ) وصلى عليه عمر بن عبد العزيز . سير أعلام النبلاء (٦٧٣) .

(2) عمر بن عبد العزيز : ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد ، العابد السيد ، أمير المؤمنين حقاً أبو حفص ، القرشى الأموى المدنى ثم المصرى ، الخليفة الزاهد الراشد أشج بنى أمية ، وكان من أئمة الاجتهاد ، ومن الخلفاء الراشدين رحمه الله عليه ، كان حسن الخلق والخلق ، كامل العقل ، حريصا على العدل بكل ممكن ، مناقبه رضي الله عنه كثيرة جداً جداً مات سنة (١٠١هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٧٥) .

(3) أى حزن .

(4) أى ندت وابتلت .

عَــــادَةٌ(٥)

حذار حذار من دار هى شر دار ؛ حرامها سم ناقع وعذاب واقع ، وحلالها نصب واسع وأمل شاسع :

دُنيـــاكَ دَارُ غـــرُور ... ومُتْعَـــةٍ مُسْتَعَــارَةٌ(٢)
ودَارُ كَسْـــبٍ وكَيْـــس ... ومغْنَـــم وتِجَـــارةٍ
ورأسُ مَـــالِكَ نَفْـــسٌ ... فَـــاحْذَر عَلَيْهَـــا الخَسَـــارَةَ
ولاَ تَبغْهَـــا بأكْـــل ... وَطِيـــبٍ عُـــرقٍ وشَـــارَةَ(٣)
فَـــإنَّ مُلْـــكَ سُلَيْمَـــانَ ... لاَ يَفِـــى بشَـــرارَةَ

ومن قصيدة ليَّ فى مثله :

فأنـــا بـــدَار تُـــرْدِى مُجَارِيهَـــا ... وتُخْفِــرُ الآلَ فــى مَوادِعِهَـــا(٤)
وتَسْـتَفِزُّ الحَلِيـمَ عَـــن سُـــنَن ... القَصْـدِ وتُغْيِـى عَلـى مُخَادِعِهَـا
مَـــنْ رَام إبْقَاءَهَـــا عَلَيـــهِ فَقَـــدْ ... حَـاوَلَ مَـا لَيْـسَ فـى طَبَائِعِهَـا
أسْـرَعُ مـا تَنْتَجِـى بَوَائِقُهَـا ... يَومـاً إذَا اسْـتَجْمَعَتْ لِجَامِعِهَـا(٥)
فَتِـه عَلَيهْـا وَارْبَـأْ بنَفْسِـكَ عَـنْ ... طِلاَبِهـا واقْتِفَــاءِ تَابعِهَـا(٦).
واشْقُقْ عَصَا بَيْعِـه الغـرور لَهـا ... وانْبُـذْ صُرَاحـاً إلـى مُبَايعِهَـا(٧)
عَمْــرِى لَقَــدْ أنْــذَرَتْ مُنْــذِرَةٌ ... فَاجعَــةً نُصْحُهَـا لسَامِعِهَـا
مُؤْذِنَـــةً أنَّهَـــا مُؤَدِّيَـــةٌ ... لِسَـاعَةٍ آهٍ مِــنْ قَوارعِهَـا(٨)
فَالأَمْــنُ والله مِــنْ فَجَـائِعِهَـا ... يَضْمَنُــه الزُّهْــدُ فِى مَطَالِعِهَـا

ومن ذلك :

راعَـكَ الزهـدُ إنَّمـا الزُّهْـدُ رفـضٌ ... لفضُـول يُلْهِـى ويُطْغِـى ويُـرْدِى
ثُـمَّ لا تمكـنُ الزهـادةُ فـى المقـ ... سوم حتما بل فى ضـروبِ التَّعـدى
مرحبـاً بالكفـافِ عفـوا هنيئـا ... ثـم لا مرحبـا بحـرص وكـدٍّ(٩)

---

(٥) رض : طوِّع .

(٢) مستعارة : مسترضة .

(٣) شارة : اللباس والزينة .

(٤) تردى : تهلك . تخفر : نقض العهد والغدر .

(٥) البوائق ، مفردها البائقة : وهى الشر .

(٦) فتِهِ : ترفع . اربَأ : اعلو وارتفع .

(٧) الصراح : آنية الخمر .

(٨) القوارع : نوائبها ونوازلها .

(٩) الكفاف : مقدار الحاجة بدون زيادة أو نقصان .

هَـا عَلِمْنَـا وقَـدْ رَأَيْنَـا كَثِـيراً ... وسَـمِعْنَا مَـنْ حَـازَ جَـدًّا بجَـدٍّ
لا يَزَالُ الحَرِيصُ يَسْتَامَـهُ الْجِـرْ ... صُ بنُصْبٍ مِنَ الشَّقَـاءِ ونَكْدِ[١٠]
ثُـمَّ لاَ يَسْتَطِيـعُ أنْ يَتَعَـدَّى ... قَـدْراً مَـا لِحَتْمِـهِ مِـنْ مَـرَدِّ

قيل : إن حرقة بنت أبى قابوس ؛ النعمان بن المنذر[١] استأذنت بالقادسية[٢] على سعد بن أبى وقاص[٣] رضي الله عنه ، فأذن لها ودخلت فى جواريها وعليهن المسموح ومقطعات السلب السود[٤] ، فرأى منظرا شنيعاً ولم تتميز له حُرقة من جواريها لمشاركتها إياهن فى الزى ، وكن رواهب فسلمن عليه ، فقال : أيتكن الحرقة ؟ فقالت الحرقة : هأنذا ذيه . فقال : أأنت حرقة ؟ .

قالت : نعم فما تكرارك استفهامى أيها الأمير ؟ إن الدنيا دار قلعة وزوال ، فما تدوم على حال ، تنتقل بأهلها انتقالا ، وتعقبهم حالا ، وإنما كنا ملوك هذه الأرض ، يجبى إلينا خراجها ، ويطيعنا أهلها مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا ، وشتت ملانا ، وكذا الدهر يا سعد، إنه ليس من قوم أتحفهم بحبرة[٥] إلا أردفهم بعبرة[٦] ، ولا أسعفهم

---

(١٠) يستامه : يحكمه ويصرفه .

(١) النعمان بن المنذر : أشهر ملوك الحيرة وآخرهم ، مدحه الشاعر النابغة الذبيانى كثيراً ، عرف بأبى قابوس . البداية والنهاية (٢/١٨٥) .

(٢) القادسية : موقع فى العراق غربى النجف ، واسم معركة المسلمين والفرس فى أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فى سنة (١٦هـ) وقاتل المسلمون يومئذ قتالاً عظيماً وانتصروا فيها. معجم البلدان (٩٣٥٠) .

(٣) سعد بن أبى وقاص : الأمير أبو إسحاق القرشى الزهرى المكى ، أحد العشرة ، وأحد السابقين الأولين ، وأحد من شهد بدراً والحديبية ، وأحد الستة أهل الشورى ، وأول من رمى بسهم فى الإسلام ، وكان جيد الرمى . ومن مناقبه : أن فتح العراق كان على يديه، وهو كان مقدم الجيوش يوم وقعة القادسية ، ونصر الله دينه ، ونزل سعد بالمدائن ، ثم كان أمير الناس يوم جلولاء ؛ فكان النصر على يده ، واستأصل الله الأكاسرة . ومات سنة (٥٥هـ) . سير أعلام النبلاء (٥) .

(٤) المسموح : يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً . السلب : ثياب المأتم السود .

(٥) النعمة والعطية والسرور .

بفرحة إلا أعقبهم بترحة ، ثم أنشدت :

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ والأَمْرُ أَمْرُنَـا   إِذَا نَحْنُ فِيْهِـم سُـوقَةٌ نَتَنَصَّـفُ
فَأُفٍّ لِدُنْيَـا لاَ يَـدُومُ نَعِيمُهَـا   تَقَلَّـبُ تَارَاتٍ بِنَـا وتَصَـرَّفُ

وبينما الحرقة تخاطب سعدا رضي الله عنه ، دخل عمرو بن معدى كرب[1] الزبيدى على سعد فنظر إلى الحرقة فقال لها : أنت حرقة التى كانت يفرش لك الأرض من قصرك إلى بيعتك بالديباج[2] المبطن بالوشى[3] ؟ قالت : نعم ، فقال لها عمرو : فما الذى دهمك ، وأذهب محمودات شيمك ، وغور ينابيع نعمك، وقطع سطوات نقمك ؟ .

فقالت : يا عمرو إن للدهر عثرات تلحق السيد من الملوك بالعبد المملوك ، وتخفض ذا الرفعة وتنزل ذا النعمة ، وإن هذا أمر كنا ننظره ، فلما نزل لم ننكره.

ثم إن سعدا سألها عما قصدته فاستوصلته ، فأجزل صلتها وقضى حوائجها ، ولما فصلت عنه سئلت ماذا لقيت ؟ فأنشدت :

صَـانَ لِى ذِمَّتِى وأَكْـرَمَ وَجْهِى   إِنَّمَا يُكْـرِمُ الكَرِيْـمَ الكَرِيْـمُ

روضة رائقة ورياضة فائقة

قال محمد عفا الله عنه : نذكر إن شاء الله من زهد الملوك ما يناسب الخبر النبوى الذى قدمناه آنفا ، وهو زهدهم فى الملك ، مع نبذهم له وتخليهم عنه ، ولا نعرض لذكر من زهد فى نعيم الملك ولم ينبذه ؛ لاستقلاله بأعباء سياسة الخلق بالحق، وأعباء الزهادة والعبادة مع ذلك . كداود وسليمان والنبيين

---

(٦) الدمعة من الحزن والبكاء .

(١) عمرو بن معدى كرب : شاعر وفارس مخضرم ، أسلم وارتد ثم أسلم مرة أخرى وقد شهد موقعة القادسية . معجم البلدان (٤٠٣٩) البداية والنهاية (٣٩/٧ ، ٤٦) .

(٢) الديباج : كلمة فارسية وهو الثوب الحرير .

(٣) الوشى ، مفردها وشاء : وهو نقش الثياب .

عليهم السلام ، وكأبى بكر[١] وعمر فى الخلفاء المهديين ، فإن هذا الفن يخرج عن هذا التبويب ولا يندرج فى هذه الأساليب .

فمن ذلك ما بلغنى أن معاوية بن معاوية رحمه الله كان على صغر سنه عالما عاملا ، متبتلا متقللا ، قد ذلل نفسه بالتقوى وعدل بها عن زينة الدنيا ، أفضت الخلافة إليه وسنه سبع عشرة سنة ، فخامره[٢] الندم على تحملها ، وأطلع أهل بيته على ذلك، فكرهوه ، ولبثوا عشرين ليلة يناظرونه فيه وينهونه عن إظهار كراهيته له .

فلما رأوا أنه غير منته ، وأنه لابد له من خلع نفسه ، دعوه إلى أن يعهد إلى أحد منهم ، فقال : كيف أتجرع مرارة فقدها وأتقلد بيعة عهدها ، ولو كنت مؤثراً بها أحدا لآثرتُ نفسى .

ثم إنه خطب الناس ، فذكر لهم عجزه عن القيام بأمرهم وعهد إليهم أن ينظروا لأنفسهم ، وأحلهم من بيعته وانصرف ، فأغلق بابه ولم يأذن لأحد ، فلبث بذلك خمسا وعشرين ليلة ثم لحق بالله تعالى .

وقال على بن الجهم[٣] فى ذلك من أرجوزة تاريخية :

ثم ابنُهُ مُعيَّةُ المُضْعِفُ ... كَانَ لَه دِينٌ وعَقْلٌ يَعْرِفُ
ودَامَ شَهْراً ثُمَّ نِصْفَ شَهْرِ ... وجَاءَهُ المَوْتُ عَزِيزَ الأَمْرِ
وتَرَكَ النَّاسَ بِغَيْرِ عَهْدِ ... تَوَقِّياً مِنْهُ وفَضْلَ زهدِ[٤]

قال محمد : كلام على بن الجهم هذا يتضمن أن معاوية مات ولم يخلع نفسه، والمعروف ما ذكرته ، وإنما قال معية ؛ لأن الناس استضعفوه لتركه الخلافة ، ولذلك كنوه أبا ليلى وهى كنية المستضعف ، وبلغنى أن الأمر الباعث

---

(١) أبو بكر الصديق : عبد الله بن عثمان ، أبو قحافة ، خليفة رسول الله ﷺ . الإصابة (٩٦٣٦) أسد الغابة (٥٧٣٧) الاستيعاب (٢٩١٧) .

(٢) أى داخله وخالطه .

(٣) على بن الجهم : شاعر عباسى معاصر لأبى تمام كان فى زمن المتوكل على الله ، ومدحه وأجزل إليه المتوكل العطاء الكثير . البداية والنهاية (١٠/٣٦٥) .

(٤) توقياً منه : أى خوفاً منه .

له على الزهد فى الخلافة والنبذ لها ؛ أنه سمع يوما جاريتين له تتلاحيان[1] وكانت إحداهما بارعة الجمال ، فقالت الأخرى : لقد أكسبك جمالك كبر الملوك ، فقالت لها الحسناء : وأى ملك يضاهى ملك الحسن وهو قاض على الملوك ، فهو الملك حقا؟ .

فقالت لها الأخرى : وأى خير فى الملك وصاحبه إما قائم بحقوقه وعامل بالشكر فيه ، فذلك مسلوب اللذة والقرار ، منغص العيش، وإما منقاد لشهواته موثر للذاته ، مضيع للحقوق ، مضرب عن الشكر ، فمصيره إلى النار ؟ فوقعت الكلمة من نفس معاوية موقعاً مؤثراً ، وحملته على الانخلاع عن الإمرة .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : كان عدى بن زيد العبادى التميمى[2] ، قد دخل بلاد الروم رسولا لملك الفرس ، فاقتبس من علومهم ، وقرأ الكتب ، وكان ذا مكانة من ملك الفرس وكاتبا وترجمانا ، وكان أبوه زيد واليا على الحيرة[3] ، وخليفة المنذر بن ماء السماء[4] ، فكان عدى بن زيد عند ملوك الحيرة من لخم[5] ؛ لأجل ما ذكرناه فى أعلى المراتب.

قالوا : حضر يوما عند النعمان بن امرىء القيس بن عدى ملك الحيرة وهو بالخورنق ، والخورنق قصر قد قدمنا ذكره ، فأشرف النعمان على ما حول الخورنق وذلك فى فصل الربيع ، فتأمل ملياً ، ثم أقبل على عدى بن زيد ،

---

(١) أى تتشاتمان وتتلاومان .

(٢) عدى بن زيد العبادى : ابن الحمار التميمى النصرانى ، جاهلى ، من فحول الشعراء ، وهو أحد الفحول الأربعة الذين هم : هو وطرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة . وقال الحافظ الذهبى : ذكرته للتمييز . سير أعلام النبلاء (٦٧٢) .

(٣) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف وبالحيرة الخورنق بقرب منها ، وكانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية من زمن نضر ثم من لخم النعمان وآبائه . معجم البلدان (٤٠٣٩) .

(٤) المنذر بن ماء السماء : هو ابن امرئ القيس بن النعمان ، وماء السماء هى أمه ، وكانت تسمى مارية . وهو من ملوك اليمن ، ودُعى ذو القرنين . مفاتيح العلوم (٦٩) .

(٥) لخم : قبيلة عربية قحطانية ، سكنت شمال شرق الجزيرة العربية ، وهى أساس دولة المناذرة الذين استوطنوا الحيرة . معجم البلدان (٣/١٤٠) .

فقال: يا عدى أكل ما أرى إلى نفاد وزوال ؟ .

فقال عدى : قد علم الملك أن الأمر على ما ذكره .

فقال النعمان : وأى خير فيما يفنى ويبيد ؟ ثم قَلَّ ما لَبِثَ أَنْ تَنَصَّرَ وتَرَهَّب وساح فى الأرض .

وقيل : بل كان معجبا بالزهر المسمى شقائق النعمان[1] وإليه ينسب ؛ لأنه كان يمنع رياضه ويحميه ، وأنه قصد يوما من أيام الربيع غب سماء[2] شقيقة قد كساها ذلك النَّوْرُ ، والشقيقة : رملة مستطيلة ؛ فلما عاين تنضد[3] ذلك النور فى منابته ، وقُنُوَّ حمرته[4] ، وخضرة سوقه ، وتموجه بهبوب النسيم عليه ، وتناثر قطر الندى من أرجائه ، رأى منظرا بهيجاً ، فأمر فبسط له بإزاء تلك الشقيقة بساط موشى بالحرير فكأنما كان روضة مختلفة بأصناف الزهر ، ونصبت عليها قبة من الديباج الأحمر قد شحنت من المقاعد والحشايا والنمارق[5] والمساند بما يضاهيها ويجانسها ، ولبس من الحرير المصبوغ بالبهرمان ، وهو المعصفر[6] أفضل ما يمكنه ، وجلس فى قبته تلك مواجها للشقيقة ، وحوله ندماؤه وملهوه وعنده عدى بن زيد ، فشرب وطرب ودبت فيه الراح[7] فارتاح .

ثم أقبل على عدى فخاطبه بما ذكرناه آنفا ، فلما سمع عدى مقالته اهتبل فرصته ، فراجعه بما ذكرناه ، وأزمع الزيادة فى إيقاظه من غفلته ، فأمهله حتى انقضى أربه من مجلسه ذلك ، وركب فسايره عدى إلى أن مر بقبور بظاهر الحيرة.

فقال عدى : إنها تقول : أيها الركْبُ المخنون[8] على الأرض المجدون ،

---

(١) شقائق النعمان : هى زهور ربعية ذات لون أحمر جميل .
(٢) أى ينظر إلى سماء الزهرة .
(٣) أى ظهر ولمع .
(٤) أى سواد حُمرته من شدّتها .
(٥) النمارق ، مفردها النمرق : وهى الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .
(٦) أى بصبغة صفراء اللون .
(٧) الخمر .
(٨) الغافل فاقد الوعى .

كما أنتم كنا وكما نحن تكونون .

فلما سمع النعمان مقالته راجعته فكرته السالفة ، وظهر عليه الانكسار ، ثم مر بشجرات متناوحات[1] ، بينهن ساحة فيها عين جارية ، فقال عدى للنعمان : أتدرى ما تقول هذه الشجرة أبيت اللعن ؟ فقال لا ، ما تقول ؟ .

فقال عدى : إنها تقول :

مَـنْ رَآنَـا فَلْيُحَـدِّثْ نَفْسَـهُ ... أنَّـه مُوفٍ علـى قَـرْنِ الـزَّوَالْ[2]

وصُرُوفُ الدَّهْـرِ لاَ يَبْقَـى لَهَـا ... ولمـا تَأْتِـى بـه صُـمُّ الجبَـال

رُبَّ رَكْـبٍ قَـد أَنَـاخُوا حَوْلَنَـا ... يَشْرَبُونَ الخمرَ بالمَاء الـزُّلاَل[3]

والأَبَـارِيقُ عَلَيْهَـا قِـدَمٌ ... وعِنَاق الخَيْـل تزهـو فـى الجَـلاَل

عَمَّـرُوا دَهْـراً بعَيْـش حَسَـن ... آمِنِـى دَهْرهـم غيـرَ عِجَـال

ثُـم أضْحَـوا عَصـفَ الدَّهْرُ بهـمْ ... وكَـذاكَ الدَّهْـرُ يُـرْدِى بالرِّجَـال

وكَـذَاكَ الدَّهْـرُ يُـودِى بالفَتَـى ... فى طِلاَبِ العَيْش حَالاً بَعْدَ حَـال[4]

ويُقال:إن ذلك كان بينهما فى موطن آخر وإنه إنما أشار به إلى قبور كما أشار له أولا.

قيل : فلما بلغ النعمان قصره قال لعدى : إذا كان السحر فاحضرنى فإن عندى خبرا أطلعك عليه ، فلما كان السحر حضر عنده ، فوجد النعمان قد لبس مسحا[5] ، وأخذ أهبة السياحة ، فودعه وذهب ولم يعلم له خبر .

وعندى أن المترهب السائح هو النعمان بن المنذر الأكبر ، ولم يدركه عدى؛ ولكن ذكره فى شعره ، والذى أدركه النعمان بن المنذر الأصغر ، وأن عديا نبهه بما حكى عنه تنبيها اقتضى تنصره لا سياحته ، بل هو الذى قتل عديا وبقى فى ملكه إلى أن قتله كسرى ، والله أعلم أى ذلك كان .

وبالجملة ففى ذلك قال عدى بن زيد :

أيُّهـا الشَّـامِتُ المُعَـيِّرُ بـالدَّهْرِ ... أأنْـتَ المُـبرأ المَوْفُـورُ

أمْ لَدَيْـكَ العَهْـدُ الوَثِيـقُ مِـنَ الأيَّـام ... أمْ أنْـت جَـاهِلٌ مَغْـرُورُ

مَـنْ رَأَيْـتَ المَنُـونَ أخْلَـدْنَ أمْ مَـنْ ... ذَا عَلَيْه مِـنْ أنْ يُضَـامَ خَفِـيرُ[6]

---

(١) متقابلات .

(٢) قرن الزوال : أى على أهبة الرحيل .

(٣) أناضوا : أقاموا بالإبل فى مكان ما وأبركوها . الزلال : الماء العذب الصافى .

(٤) الودى : الهلاك .

(٥) المسح : كساء من الشعر يلبس للدلالة على التقشف والزهد .

(٦) المنون : الموت لأنه ينقص العدد ويقطع المدد .

أيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الملوك أنُوشِرْ ... وانَ أمْ أيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
وَبنُو الأصفرُ المُلوكُ مُلُوكُ الـ ... رُّوم لَمْ يَبْقَ مِنْهُم مَذْكُورُ
وأخُوكَ الحِصْنُ إذْ بَنَاهُ وإذْ دِجْلَة ... تُجْبَى إليْهِ والخَابُور[7]
شَادَهُ مَرْمَراً وجَلّلَهُ كَلْـ ... ساً فَلِلطَّيْرِ فِى ذُرَاهُ وكُورُ[3]
لَمْ يُهِبهُ رَيْبُ المَنُون وبادَ الـ ... مُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
وتَذكّرَ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذْ أشْـ ... رَفَ يَوْماً ولِلْهُدَى تَبْصِيرُ
سَرَّهُ مَالُهُ وكَثْرَةُ مَا يَمْـ ... لُكُ والبَحْرُ مُعْرِضٌ والسَّدِيرُ[4]
فَارْعَوَى قَلْبُه وقَالَ ومَا غِبْـ ... طَةُ شَىْءٍ إلَى المَمَاتِ يَصِيرُ[5]
ثُمَّ بَعْدَ العُلاءِ والمُلْكِ والسَّلا ... مَةِ وَارَتْهُم هُنَاكَ القُبُورُ
ثُمَّ صَارُوا كَأنَّهُم وَرَقٌ جَفَّ ... فَألْوَتْ بِهِ الصَّبَا والدَّبُورُ[6]

روضة رائقة ورياضة فائقة

حكى أن ملكا من اليونانيين قام من منامه فى بعض الغدوات ، فأتته قيمة ملبسه بثيابه فلبسها ، ثم ناولته المرآة فنظر فيها فرأى شيبة فى لحيته ، فقال : هات المقراض[5] يا جارية ، فأتته به فقص الشيبة ، فناولها الجارية ، وكانت لبيبة أديبة، فوضعتها فى كفها وأصغت إليها بأذنها ساعة ، والملك يتأملها فقال لها : ما تصغين ؟ .

فقالت : استمع إلى ما تقول هذه الشعرة التى عظم مصابها بمفارقة الكرامة العظمى حين سخطها الملك فأقصاها .

---

(٧) دجلة : نهر بغداد بالعراق . معجم البلدان (٤٧٠٩) . الخابور : مدينة لطيفة على شاطىء الفرات لها بساتين وحدائق ، وبها مات مسلمة بن عبد الملك ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء . وقيل : هو اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعربان . معجم البلدان (٤٠٥٥) الروض المعطار (٢١١) .
(٣) الكلس : ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما .
(٤) السدير : نهر بناحية الحيرة . وقيل : قصر قريب من الخورنق كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم . معجم البلدان (٦٣٢٥) .
(٥) ارعوى : رجع عن الجهل .
(٦) الصبا : ريح شرقية لطيفة يحبها العرب . والدبور : ريح غربية مقابلة لريح الصبا .
(٥) المقراض : وهو ما يقطع به ، وهو شفرتان ، أى المقص .

فقال لها الملك : فما الذى سمعت من قولها ؟

فقالت : زعم قلبى أنه سمعها تقول كلاما لا يجترىء لسانى على النطق به لاتقاء سطوة الملك .

فقال لها : قولى على حال أمنة وعدم تَوَقٍّ ، ما لزمت أسلوب الحكمة .

فقالت : إنها تقول : أيها الملك المسلط إلى أمد قصير ، إنى كنت ظننت بك البطش بى والاعتداء على ، فلم أظهر على سطح جسدك حتى بضت ، وحضنت بيضى حتى أفرخن ، وعهدت إلى بناتى فى الأخذ بثأرى عهدا ، وكأن قد خرجن فجعلن الأخذ بثأرى منك إما باستئصالك ، وإما بتنغيص لذتك وتحيف قوتك حتى تعد الهلاك راحة .

فقال لها : اكتبى كلامك هذا ، فكتبته له فتصفحه مرارا ، ثم نهض مبادرا فأتى هيكلا[١] من الهياكل التى يعظمونها ، فنزع عنه ملبس الملك فتزيا بزى النساك.

وبلغ ذلك أهل مملكته ، فبادروا إليه ، وطلبوه بالعود إلى محل ملكه وتدبيره، فامتنع عليهم وسألهم إقالته وتمليك غيره ، فامتنعوا عليه وهموا بامتحانه ، فأصلح بينهم النساك على أن يتركوه فى ذلك الهيكل يعبد ربه ، ويستكفى لما يستشار فى مثله من أمور رعيته ، ويلى غيره ذلك بنفسه ، فلبث على ذلك إلى أن هلك .

روضة رائقة ورياضة فائقة

بلغنى أن ملكا من ملوك اللان[٢] كان كافرا شديد العتو والكبر ، حديث السن مستحكم الغرة ، وكان إذا ركب لم يستطع أحد أن يرفع صوته إلا بالثناء عليه والمدح له والشكر لإحسانه ، وكان له وزير نصرانى مؤمن يكتم إيمانه، ويتحين وقتا يمكنه فيه دعوة ذلك الملك إلى الله .

فركب الملك يوما فسمع شيخا قد رفع صوته لبعض شأنه ، فقال للشرطة : خذوه ، فلما أخذوا الشيخ قال : ربى الله .

فقال الوزير للشرطة : خلوا عنه ، فخلوا عنه ، فاشتد غضب الملك على

---

(١) موضع فى صدر الكنيسة يقرب فيه القربان ، وهو التمثال .

(٢) اللان : بلاد من الصين .

وزيره ولم يمكنه الإنكار عليه فى ذلك المقام ؛ لئلا يظهر للناس أن الوزير يخالفه فيما يأمره به ، وسكت ليوهم الناس أن الوزير إنما أمر بما أراده الملك .

فلما انصرف الملك إلى مستقره أحضر الوزير فقال له : ما دعاك إلى مناقضة أمرى بمشهد من عبيدى ؟

فقال له الوزير : إن لم يعجل الملك أريه وجه نصحى وإشفاقى ، وحوطتى عليه فيما أتيته .

فقال له الملك : فإنى لا أعجل عليك .

فقال : أريد أن يحتجب الملك فى مجلسه هذا ويكون بحيث يرى ويسمع من حجابه . ففعل الملك ذلك ، ثم إن الوزير أحضر قوسا صنعها للملك بعض خدمته وكتب الصانع اسم نفسه عليها ، فناولها غلاما بحضرته ، وقال للغلام : إنى محضر صانع هذه القوس فإذا حضر وأقبلت عليه بالمحادثة ؛ فاقرأ الاسم الذى على القوس جهرا ؛ حتى تعلم أن صانعها قد سمعك ثم اكسرها .

وحضر القواس وفعل الغلام ما أمره به الوزير ، فلما كسر القوس لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه[1] .

فقال له الوزير: ويحك أتضرب غلامى بحضرتى ؟ فقال القواس : إن القوس عملى أيها الوزير ، وهى فى غاية من الحسن والجودة فلأى شىء كسرها؟

فقال الوزير : لعله لم يعلم أنها عملك ، فقال : بلى ، لقد أخبرته بأنها عملى.

فقال الوزير : كيف تخبره ؟ فقال : هذا خطى يدلك عليها ، وقد قرأه وأنا أسمعه ، فصرف الوزير القواس ، ثم أقبل على الملك فقال له : قد رأيت وجه نصحى وإشفاقى عليك بما كان منى ، وإن الملك لما أراد أن يسطو على الشيخ أخبره الشيخ أن الله ربه ، فخفت على الملك أن يبطش به رب الشيخ وليس يقوم لبطشه شىء ، فقال الملك : وهل للشيخ ربٌ غيرى ؟ فقال الوزير : ألم يره

---

(١) جرح رأسه وكسرها .

الملك شيخا والملك شاب ؟ فهل كان هذا الشيخ قبل أن يولد الملك لا رب له ؟

فقال الملك : لا ، بل كان أبو الملك ربه .

فقال الوزير : فما بال المربوب بقى بعد هلاك ربه ؟ .

فقال الملك للوزير : قد قدحت فى كبدى بزند غير صالدة[1] ، ولقد علمت الآن أنه يجب أن يكون للملك أو المملوك رب لا يزول ؛ فهل تعرفه وتدلنى عليه؟

فقال الوزير : نعم إنى أعرفه ، فقال الملك : دلنى عليه أكن لك تبعا ما بقيت.

فقال الوزير : أما دلالتك عليه فأول ما يجب لك على ، وأما اتباعك لى فلئن فعلته فإنما تتبع عبدك الذى يقيك بمهجته ما يريبك ، ثم إن الوزير تلطف فى دلالته على الله سبحانه ، وشرح الله صدر الملك لقبول ذلك ؛ فآمن بالله سبحانه.

ثم قال الملك : أما لربنا خدمة إذا أحسنها عبده حظى بذلك عنده ؟ فقال له الوزير : بلى إن له وظائف عبادة أمر بها خلقه ورضى لهم فعلها ، ووعدهم عليها رضوانه والقرب منه والكرامة ، وذكر له الصلاة والصيام وغير ذلك من شرائع المسيح عيسى عليه السلام ، فجعل الملك يرتاض بها حتى رسخ فى علمها ، وتمرن على العمل بها .

ثم إنه قال للوزير : مالك لا تدعو الناس إلى الله كما دعوتنى ؟ فقال له : أيها الملك إن اللان أمة ذات قلوب قسية ، وفهوم قصية[2] ، ونفوس عصية ، ولست آمنهم على دمى إن تَفَوَّه لهم بذلك فمى ،

فقال الملك : إنى فاعل ذلك إن لم تفعله أنت ، فقال له الوزير : ليعلم الملك أنهم إن لم تردهم هيبته عنى لم تردهم عنه ، وسأجعل نفسى وقاءً لنفسه ، وأنهم سيقتلونى لا محالة ، فلا يجترىء الملك بمثلها بعدى .

ثم إن الوزير استدعى إلى داره وجوه تلك المملكة وذوى تدبيرها، وولاة

---

(١) الزند الذى لا يورى ناراً . أى غير صائبة .

(٢) أى بعيدة .

أحكامها وأهل النسك والحلم منها ، فلما اجتمعوا إليه فى داره ، قام فيهم خطيبا بالدعوة إلى الله سبحانه ، فثاروا إليه فقتلوه، وصاروا إلى الملك فأخبروه بما كان من الوزير ومنهم ، وقالوا له : إنا ظننا أن الملك على مثل رأيه ويجب معرفة ما عنده ، فأرضاهم بالقول ، وأدهن لهم وصوب رأيهم فى قتل الوزير ، فانصرفوا راضين عنه ، وقل ما لبث ذلك الملك أن نبذ ملكه ولحق بالرهبان فكان معهم إلى أن توفاه الله عز وجل .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : إن أزدشير بن بابك بن ساسان ولد له - فى حداثة سنه وبدء أمره - ولد فسماه بابك باسم أبيه ، فنشأ رائع الصورة بارع الجمال ، فشغف به أزدشير حبا، وألزمه فيلسوفا ماهرا فى الفلسفة راسخا فى الحكمة متحليا بالزهادة ، وسأله أزدشير أن يتخذه ولدا ، فاقتطعه الفيلسوف عن أبويه ، وولى تربيته وتدريجه ، إلى أن اضطلع بأعباء علوم الفلاسفة وتبوأ مثوى الزهد .

ولما سعى أزدشير لضم كلمة الفرس ، فتم له المراد وأعطاه الطوائف القياد، استمد رأى ولده بابك فيما نابه من المهمات ، فظفر منهم بأضعاف أمنيته ، إلا أنه كان لا يشاهده ويشافهه إلا بغض إليه الدنيا تصنيفا لمعايبها ، وتعريفا بشوائبها، وتخويفا من عواقبها ، فكان أزدشير منغص المسرة بولده لأجل ذلك .

وكان يقال : من صحب الملوك بما يكرهونه فلا ينكر هوله .

وكان يقال : قل ما يتوفر فكر الملك على أمر واحد حتى تطول عنايته به على انفراده ، وذلك لكثرة ما تتجاذب خواطره من الأمور حتى إذا توفر فكره على أمر وأجمع له ، أوشك أن يحكمه ، فإذا رأيته أجمع على أمر وتوفر عليه ، فلا تعرض له بغيره فتحول بينه وبين الفرصة التى بها ظفره .

قيل : وكان أزدشير يحتمل ذلك لولده شغفا به وتألفا عليه ، فقال يوما : يا بابك أتعرف أباك ؟ قال بابك : إن لى أيها الملك السعيد أبوين ، أبا كان علة كونى ، وأبا كان علة بقائى ، وأنا بهما عارف .

فقال له أزدشير : صف لنا أباك الذى كان علة كونك .

فقال بابك ما معناه : إنه ملك ملأ العيون فهما ، والأسماع ثناء ، والصدور

هيبة ، والقلوب محبة ، ذو رأفة شاملة وقضية فاضلة ، وسيرة عادلة ، وحزم أخاف قلوب المريبين فى أجسادها كسيوفهم فى أغمادها ، وأمن المريبين بين السباع الضارية والأفاعى الجارية ، فالأشباح[1] رق لسيفه وحزمه ، والأرواح رق لسيبه[2] وحلمه .

فقال أزدشير لابنه بابك : صف لى أباك الذى كان علة لبقائك .

فقال بابك ما معناه : إنه حكيم عرف فضيلة نفسه ، فكرمها وعنى بها، فخدمها .

فقال أزدشير : أخبرنا عن كيفية خدمته لنفسه .

فقال بابك ما معناه : إنه تأمل نفسه فرآها أرضا أريضة أنيقة ، بكل خير خليقة ، ذات مياه نابعة وأشجار كارعة[3] وثمار يانعة ، وظل ظليل ونسيم عليل، إلا أنه ألفاها[4] مأوى لأسد الغضب ، ونمور الجهل ، وذئاب الغدر ، وخنازير الشره ، وكلاب الحرص ، وسباع الحمق ، وحيات الظلم ، وعقارب الحسد ؛ فنفى عنها هذه الآفات كلها وحصنها منها فصارت خيرا لا شر فيه .

فلما سمع أزدشير مقالة ابنه علم أنه معرض عن الملك ، زاهد فيه نابذ له ، فساءه ذلك ، ثم أقبل عليه ، فقال له : يا بابك إن الحكمة لا ترضى لمن اتصف بها أن يكون مربوبا مقهورا مع تمكنه من أن يكون ربا قاهرا .

فقال بابك : ما أجدر الملك السعيد بالصدق وأحراه بالإصابة ، ولكن إن أذن الملك السعيد ضربت له مثل الرب القاهر والمربوب المقهور .

فقال أزدشير : هات ما عندك من ذلك .

فقال بابك : ذكروا أن فيلا كان مكرما عند بعض الملوك وكان ربيبا أنيسا أديبا ، وأنه تصيد لذلك الملك فيل وحشى ، فعسرت على السُّوّاس[5] رياضته وتعذر عليهم تأنيسه ، فرأوا أن يجعلوه مع ذلك الفيل الأنيس الأديب ليأنس به

---

(١) الأشباح ، مفردها الشبح : وهو الشخص .

(٢) السيب : العطاء والكرم والمال .

(٣) الكارعة : النابتة على الماء .

(٤) أى تعوده وأنسه .

(٥) السواس ، مفردها : سائس وهو معلم ومؤدب الدواب .

ويقتبس من أدبه ففعلوا ذلك به فازداد نفارا وتوحشا ، فبالغ السواس فى عقوبته، والتضييق عليه والتجويع له ؛ ليذل فنال منه الجهد ، وأن الفيل الربيب قال له يوما: لقد جنيت على نفسك شرا ، وأسأت النظر لها بجهلك ، ولو علمت ما يراد بك من الخير لم تفعل .

ولكنه كان يقال : العزة باب تحجب الألباب عن صواب الصواب .

وكان يقال : الجاهل ميت الأحياء لتهوره وفساد تصوره .

وكان يقال : لا تبح كرامتك غير طالبها كما لا تنكح كريمتك غير خاطبها .

فقال الفيل الوحشى للربيب : ما الذى يراد بى ؟ قال : يطيب علفك[1] ، ويستعذب موردك ، وينظف مسكنك ، ويوكل بك خدمة يكلأونك[2] ، ويراعون شئونك ويجعل لبروزك أوقات معلومات منتظرة ، يحشد الناس لها ؛ فتجلل الديباج ويضرب بين يديك آلات تهيج الطرب ، وتبعث على الاختيال ، ثم تبرز مكرما معظما لا تعارضك دابة ، ولا تهب عليك للهون هابة.

فقال الفيل الوحشى للربيب : لأختبرن ما ذكرت لى ، فنزع عن توحشه ونفاره وتأتى لما يراد منه ، فكرم ونعم وخدم وعظم ، ولما أظل يوم الزينة بولغ فى تكرمته وتنظيفه ، وجلل بالديباج ، وشد على ظهره سرير مزين وصعد عليه المقاتلة عليهم الدروع والخوذ ، وبأيديهم عمد الحديد ، وركب على عنقه دارع[3] بيده كلاب وألبست فنطسته الزرد[4] ، وشد على طرفها قائم سيف كبير، وقبض سواسه على نابيه من عن يمين وشمال ، وبأيديهم عمد الحديد ، وعليهم الدروع، وضربت بين يديه الطبول والصنوج[5] ، وسار على تلك الحال حتى بلغ منه المراد ،

فلما عاد إلى مأواه قال لذلك الفيل الربيب : قد اختبرت حقيقة ما حدثتنى

---

(١) ما تأكله الدابة .

(٢) أى يحرسون لك مواضع طعامك .

(٣) أى من يرتدى الدرع .

(٤) الزرد : الدرع يتداخل بعضها فى بعض .

(٥) الصنوج ، مفردها الصنج : وهى آلة للطرب لها أوتار .

عنه ورأيت زيادات أحببت أن أسألك عنها .

قال : ما هى ؟ .

قال : ما كانت تلك الأثقال التى حملت على ظهرى ؟ .

قال الربيب : أولئك المقاتلة على سرير ومعهم آلات القتال .

قال : فما ذلك الذى سترت به فنطستى ، والذى صير على طرفها ، وما أراد القابضان على نابى والراكب على عنقى ؟ .

فقال له الربيب : أما الذى سترت به فنطستك فدرع تحصنها ؛ لأنها مقتل ، وأما الذى ربط إليها فسيف يضرب به فى العدو ، وأما القابضان على نابيك فإنهما يذبان عنك الأعداء ، أو يعينانك على الإقدام ، وأما الراكب على عنقك فيهديك الوجه الذى يراد منك سلوكه .

فقال الفيل الوحشى : لأمر ما طيب علفى واستعذب موردى ، ونظف بدنى وسكنى ، ونُوِّه باسمى وجُمِّل ملبسى ، وإنى لأرى أمرا لا يقوم خيره بشره ، ولا يفى نفعه بضره ، وبعد فلأكونن من أحرص الحراص على الخلاص .

وأنه كان يقال : ليس العاقل من انقاد لشهواته وخدم سوى ذاته ،

وكان يقال : من عنى بغير نفسه فقد بسط عليها ضره واستنبط لها ضره ،

وكان يقال : إذا كانت الحاجة تستعبد المحتاج لمن احتاج إليه بقدر حاجته فالناس عبيد الدنيا وأعبدهم لها أحوجهم إليها .

وكان يقال : إذا كانت العبودية كناية عن خدمة المعبود والحاجة إليه ، فأعبد العبيد ثلاثة : الملك ، والمحب ، والمنعم عليه ؛ لاستيلاء العبودية على ظاهرهم وباطنهم، والملك أعبد الثلاثة ؛ وذلك لأن الرعية تستخدم باطن الملك وظاهره فى تدبيرها وتأديبها ، وصونها من عدوها وعونها على مصالحها ، وردع ظالمها ونصر مظلومها، وتأمين سبلها ، وسد ثغورها والإعداد لما ينعشها فى الجدوب[1]، ولما يحصنها فى الحروب ، وجباية[2] فضول أموالها وصرفها فى صلاح أحوالها ، وحسم أسباب هيجها ، وإزاحة علل فتنها وهرجها

---

(١) الجدوب مكان انقطع عنه المطر فيبست أرضه .

(٢) أى جمع وضم .

، هذا مع شدة حاجة الملك إلى رعيته فى صون نفسه وتنفيذ أمره وإمحاض نصحه ودفع عدوه ،

فلما سمع الفيل الربيب مقالة الوحشى ، تبين أنه أولى منه بالعزة والتهور وفساد التصور وقال : بحق قالت العلماء : الجهل يحجب العيان ويقلب الأعيان .

وقالوا : لا يزال المخطىء مرجوا ما لم يخامره الإعجاب بخطئه ، فإذا أعجب حجب .

ثم قال للوحشى : إنى أكافئك على نصحك إياى ، وتبصيرك لى بأن أفتح لك باب الحيلة فى نجاتك ؛ لأنى أبصر بأخلاق الإنس وعاداتهم وأهدى إلى وجه الخلاص منه ، وسأتبعك وأكون خادما لك ما بقيت .

ثم إنهما اتفقا على أن يتظاهرا بالدُّخُول وهو داء يصيب الإبل والفيلة فى أعجازها ، فإذا قامت ارتعدت أفخاذها حتى تكاد أن تسقط ، فتعالج بالفصد[١] وتحمل على السير الهون .

فلما تظاهرا بذلك وسارع السواس إلى مداواتهما ، وأخرجوهما إلى الصحراء فسيروهما ، فلما بَعُدَ الفيلان عن العمارة وأمكنتهما فرصة الهرب شدا فلحقا بالفيلة المتوحشة ، فهذا أيها الملك السعيد مثل ما ذكرت .

فلما وعى أزدشير مقالة ولده بابك أطرق مغموما متفكرا فى أمره ، وقد يئس من ما يريده منه ، ثم إنه نهض وأمر بابك باتباعه ، فاتبعه حتى أدخله بيوت أمواله ومستودعات ذخائره ، فجعل يريه إياها وينبهه على مزاياها ، حتى أتى على آخرها ثم أقبل عليه فقال له : يا بابك لمن تترك هذا ، تتركه لمن هو أحب إليك من نفسك وأحق بها منها ؟ .

فقال له بابك : إن أذن الملك السعيد ضربت له مثلا فيه جواب ما سألنى عنه. فقال له أزدشير : هات ما عندك من ذلك .

فقال بابك : ذكروا أن راعيا كان يرعى بقراً على أهل قرية فيحسن لبقرهم السراح والمراح ، فلبث بذلك برهة طويلة من الزمان ، وهم به مغتبطون وعليه مثنون ؛ لما يعرفونه من بركة سعيه وتثمير رعيه ، فكانوا لا يسألونه عن شيء من أمر بقرهم التى أسلموها إليه رضى به وطمأنينة إلى أمانته وكفايته .

---

(١) الفصد : شق العرق ليخرج منه الدم الفاسد .

وكان يقال : الموثوق مرموق ، والأمين بالمودة قمين[١] .

وكان يقال : الإحسان والأمانة مملقان ، بكل لسان ناقفان ، عند كل إنسان .

قيل : وكان الراعى يأوى عند المقيل[٢] إلى صومعة[٣] راهب فيقيل فى ظلها، ويكثر التأوه والأنين لما يناله من النصب فيما يعانيه ، وكثر ذلك منه على الراهب إلى أن خامرته له رقة ، فاطلع عليه يوما فقال له : أيها الراعى مالى أسمعك تكثر الأنين والتأوه؟

فقال الراعى : ذلك لما أتجشمه[٤] من حفظ هذه البقرة ، والذب عنها وتتبع المراعى الخصيبة بها ، فأنا أقوم من ذلك بما يعجز عنه غيرى ، وأحمل على نفسى المشقات فى حصوله .

فقال له الراهب : وما الذى دعاك إلى الإضرار بنفسك وإصلاح سواها ونفسك أقرب إليك وأحق بسعيك ؟

فقال الراعى : إنى لو لم أفعل ذلك ما بلغت هذه البقرة من السمن والوفور ما ترى ، ولقد كانت يوم وليت أمرها قليلة العدد كثيرة العجف[٥] بكية[٦] الضروع، لا تزين فناء ولا تملأ إناء .

فقال له الراهب : لقد حدت عن مسألتى حيدة من لم يولها إقبالا ولم يلق لها بالا ، إنى إنما سألتك عن سبب حملك على نفسك لغيرها وإيثارك من سواها بخيرها ، فأخبرتنى بشديد عنائك وسديد اعتنائك ، فأخبرنى الآن عما أفادك حميد سعيك وسديد رعيك .

فقال الراعى : أفادنى الغنى بهذه البقر ؛ لأنى آكل من لحوم ما سقط منها ما شئت ، وأطعم ما شئت ، وأتصرف فى ألبانها وغير ذلك من منافعها تصرف المالكين ، وأنتجع بها من الأرض حيث شئت ، فهى على الحقيقة لى وبيدى .

---

(١) أى خليق وجدير .

(٢) وقت القيلولة (الظهيرة) .

(٣) المكان فى الجبل يسكنه الراهب بقصد الخلوة للعبادة .

(٤) أى أعانيه وأتكلفه .

(٥) العجف : الضعف والهزال .

(٦) أى قليلة اللبن .

فقال له الراهب : هكذا زعم راهب كان ذا بله[1] ثم صح عنده بطلان زعمه.

قال الراعى : أخبرنى عن ذلك .

فقال الراهب : إنه كان سائح مترهب فمر فى سياحته بدير كان حسن البناية، فتثلمت[2] حيطانه ، وهو بمكان طيب نزه[3] ، وبين يديه أرض أريضة فيحاء ذات ماء عذب ، وفى ذلك الدير نفر من ضعفاء الرهبان ومساكينهم ، فأعجبه الدير وأوطنه ، وكان قوى البدن جلدا معمارا ، فأصلح ما تثلم من جدران الدير، وعمر الأرض التى عنده فاحتفر سواقيها وأجرى ماءها ، وغرس فيها صنوف الأشجار، فدرت منافع الدير ، وقصده الرهبان فأوطنوه ، وسادهم ذلك السائح واتخذ العبيد والدواب ، وآلة عمارة الأرض ، واستضاف إلى أرض الدير ما جاورها، وغرس فيها من الكروم والزيتون واللوز شيئا كثيرا ، فعظمت المنافع وكثرت الجباية ورغب السائح فى جمع الدنيا ، واتخذ كنزا نفيسا فى أقرب مدة .

وكان يقال : المال كالماء فمن استكثر ولم يجعل له مسربا يتسرب فيه على قدر الحاجة ـ غرق به .

وكان يقال : المواساة فى المال والجاه عوذة بقائهما .

ولما عامل الراهب السائح من عمر معه الدير بالحرمان ، واستأثر دونهم بالمال، أكثروا شكايتهم ، ففتحت القالة فيه ، واجترأ عليه من كان يهابه ، وأفضت الحال به إلى مكاشفته ، فجاهروه ودعوه إلى الإنصاف والمواساة فيما بين يديه .

فقال لهم : كيف أعطيكم مالى الذى كسبته بكدى واستفرغت فى تحصيله جهدى ؟ .

فقالوا : بل هو مال الله ولكل واحد منا فيه حق ، ولك الفضل علينا بتنميته وصونه .

فقال لهم : ستعلمون مال من هو ؟

---

(١) أى ذو ضعف فى العقل وعجز فى الرأى .

(٢) أى حدث بها خلل وتصدع .

(٣) أى حسن المنظر .

ولما جن عليه الليل أمر عبيده فعقروا ألف دالية ، وألف زيتونة ، وألف لوزة[١] ، فأصبحت مصرعة فى أشنع منظر ، فأتوا السائح فأخبروه بما حدث ، وهم لا يعلمون أنه هو الفاعل لذلك ، فزجرهم ، وقال لهم : إنه مالى فلا عليكم منه بقى أو ذهب ، وعلموا أنه عمله ، فثاروا إليه وأهانوه وضربوه ثم طردوه ، فخرج من الدير على الحالة التى دخله عليها .

فلما حصل بظاهر الدير سرح طرفه فيما كان عمره وغرسه ، فرأى منظرا رائعا ، فتنفس الصعداء تحسرا على ذهاب شبابه وقوته وريعان عمره فيما لم يجد فيه طائلا ، ثم كانت عاقبته إلى مزايلته والانسلال[٢] منه على حال مهولة وفاقة[٣] وضعف .

فقال : بحق قالت الحكماء : الدنيا سبيل تُعبر ولا تُعمر ، وممر سالك ، لا مقر بارك .

وقيل : الدنيا جسر من عبره باعتبار ؛ أفضى به إلى قرار ، ومن عبره باغترار ، أفضى به إلى دمار وتبار[٤] .

وقالوا : قريب سلبها من سلمها ، وخطفها من عطفها ، والعاقل من أهلها من استعد لحيلها ، وليس الاستعداد كذلك إلا للتأهب لبغيها المكتوم وفراقها المحتوم ، فالاستكثار منها نقيض ذلك .

وقالوا : إن الخروج من الدنيا ما لا تطيب به نفس ، ولكن قد تتهيأ الرياضة عليه باستشعار الزهد فى الفانى العاجل ، والاستكثار من العمل النافع فى الأجل

وقالت الحكماء : التنعم فى الدنيا يضاعف حسرة زوالها ، ويؤكد غصة[٥] اغتيالها .

---

(١) شجر مثمر من فصيلة الورديات شبيه بالمشمش .

(٢) الخروج على خفية وغفلة .

(٣) الحاجة والعوذ .

(٤) فناء وهلاك .

(٥) الغصة : الضيق والحزن والهم . أى زوالها فجاءة .

ثم إن الراهب السائح عاد إلى سياحته ، فقلما لبث أن هلك .

قيل : فلما وعى الراعى مقالة الراهب ، وفهم ما ضربه له من المثل ، واستبصر فيما تضمنه من الحكم ، قال له : جزيت من ناصح خيرا ، فخذ الآن فى التصريح بحالى عندك ، فقد أدبتنى كناياتك وهيأتنى للقبول ، وجلَتْ عن فطنتى صداء غِرَّتى[١] .

فقال الراهب للراعى : لقد أوضحت لك من غلطك ، فى دعوى ملك ما استرعيته وائتمنت عليه ، وكشفت لك ما ستر عنك ، من قبح حملك على نفسك لغيرها ، معتاضا عن ذلك أعواضا قليلة ، وأعراضا مستحيلة ، فاردد البقر إلى ملاكها ، واعمل فى خلاص نفسك من السباع الضارية ، والأفاعى الجارية ، والكلاب العاوية ، والعقبان[٢] المختلسة ، والشياطين الموسوسة ، والأشراك الخاتلة[٣] ، والسموم القاتلة لتنجو من البوار[٤] ، وتعلوا إلى عالم الأنوار .

قيل : فلما انتهى بابك إلى هذه الغاية من أمثاله ، أمسك عن القول ، وأطرق أبوه أزدشير مفكرا متأملا ما تصرف فيه ولده من المقال ، وضربه له من الأمثال ، ثم نهض مضطرب البال ، مضرم البلبال[٥] ، وخرج بابك من فوره فساح ، ولم يعلم أين طاح[٦] .

قال المؤلف عبد الله الفقير إليه الغنى به ـ محمد بن أبى محمد بن ظفر ـ رحمه الله تعالى ـ : والحمد لله على ما أنهيت بغيه ، وما أردت إلى نهيه ، وأنا أعوذ بالله من عذاب الإعذاب ، كما أعوذ به من حجاب الإعجاب ، واستكفيه عِوَل السؤال ؛ كما استعفيه من غَوْل الجواب[٧] ، واستدفع به فساد الخطاب كما استدفع كساد[٨] الصواب ، وأتوب إليه فهو رحيم تواب .

(١) الغرة : الغفلة وعدم الخبرة .
(٢) العقبان ، مفردها عقاب : وهو طائر من الجوارح قوى المخالب يصيد الجرذان والأرانب.
(٣) أى الخادعة .   (٤) الهلاك .
(٥) شدة الهم والحزن .   (٦) خرج وتاه .
(٧) الغول : الهلكة من حيث لا يدرى يعنى فساد الجواب .
(٨) أى إنحراف .

فهرس الموضوعات

دار المصرى للطباعة
ت: ٣٨٣٦٥١٦ ـ الهرم







